فوقَ أرضِ الذاكرة

العنوان: فوق أرض الذاكرة

تأليف: حازم ضاحي شحادة

الطبعة الأولى: 2021

تصميم الغلاف: ASS

ISBN:

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، من دون إذن خطّي مُسبق من الناشر.

آس للنشر

سوريا . بانياس

0996772342

E-mail:assdar2021@gmail.com

Facebook: آس للطباعة والنشر

فوق أرض الذاكرة

قصص قصيرة

حازم ضاحي شحادة

إهداء

إلى أبي..

سورُ بيتنا العظيم

وطنٌ واحد

بالنسبةِ للقائدِ المُلهَم، الوطنُ مزرعةٌ شخصيّة يتصرّفُ فيها كمَا يشاء..

كلبُ القائدِ تربّى على اعتبارِ الوطن، قطعةً من اللحم، ينهشها متى شاء.

وطنُ الفقراءِ دمعُ حزنهم حيناً، ونارُ القهرِ في باقي الأحيان...

التّاجرُ الفهلوي.. وطنهُ الجشعُ والخِداع.

كم كنّا حمقى حين ظنّنَاه وطناً واحداً للجميع..

"لا ظُلمَ يُؤذينا.. لا شرّ يُؤذينا.."

أفراحُ الشتاء

بعدَ انتظارٍ دامَ لخمسِ ساعاتٍ وعلبةِ سجائر، حصلتُ على جرّةِ غاز.

قبلَ دقائق توقّفَ المطرُ عن الهطول، وأقسمُ أن شعوري بالبردِ اختفى ما أن أصبحت بينَ يدي.

كانَ الطابورُ المزدحمُ بمئاتِ الأجسادِ المنهكة يزدادُ طولاً وغمغمة كما لو أنّه قطارٌ بخاري تمَّ تخصيصهُ لركابِ الدرجة العاشرة...

أدخلتُ أصابعي بقسوةٍ في فمها ثمَّ أحكمتُ القبضة ودفعتها..

حين مالت قليلاً مددتُ يدي الثانية وعقصتها من مؤخرتها ثمّ رفعتها ووضعتها بهدوءٍ فوقَ كتفي.

واحدٌ من رفاقِ الانتظار، حين رآني أحملُ الجرّة وأنسحبُ قافلاً سحبَ مجّة أخيرة من سيجارتهِ المحتضرة وقالَ مازحاً فبانَ ضرسهُ المكسور:

.ألف مبروك يا بطل، ألف مبروك أخوي، ألف مبروك يا مواطن...

ثمّ بدأ يغني بصوتٍ مُتحشرج..

" يا علمنا لالي بالعالي

تحت جناحو أنا بتفيّا

ثمّ فجأة..

وكأنّ الطابورَ عن بكرةِ أبيه كانَ ينتظرُ تلكَ اللحظة..

وكما لو أنّ أصواتَ مئاتِ البشر المُتعبة قد تحوّلت إلى صوتِ جثّة واحدة..

قالَ الجميعُ في صرخةٍ عبثيةٍ تناثرت شظاياها في الفضاء..

"أنا سوري آه يا نيالي"

ابتسمتُ بغصّة وأسرعتُ خطوي صوبَ بيتنا المُستأجر قبلَ أن يطبقَ المَساء.

فرحةُ أمّي حينَ ولجتُ حاملاً جرّة علي بابا فاقت فرحتها حين نلتُ شهاداتي في جميع المراحلِ الدراسية.

كانت الكهرباءُ مقطوعة كعادتها في هذه البلادِ التي قالَ السيدُ الرئيس في وصفها:

"الله حاميها".

مذهلةٌ تلكَ القدرة الساحرة لضوءِ الشمعة..

بطريقةٍ عجيبة يسكبُ أجواءَ الرومانسية على أفعالٍ لم تتخيل أبداً أن الرومانسية يمكنُ أن تصاحبها في يومٍ من الأيام..

"تركيب جرّة غاز"

بعدَ أن أنجزتُ واحدةً من أمتعِ لحظاتِ حياتنا كمواطنين في بلدِ الصمودِ والتصدي والمنطلقاتِ النظرية للحزبِ الذي يريدُ توحيدَ العرب من المحيطِ إلى الخليجِ دون أن يكونَ قادراً على توحيدِ مُحافظتين سوريتين عن قناعة..

اتجهتُ إلى غرفتي وقمتُ بتجفيفِ نفسي واستبدالِ ملابسي المُبلّلة.

أشعلتُ سيجارة رحتُ أدخنها وأنا أستعيدُ بلذّة تفاصيلَ حصولي على الكنز

أستعيدها كما يستعيدُ عاشقُ تفاصيلَ لقاءٍ حميمي مع حبيبته..

حينَ أصبحَ العشاءُ جاهزاً نادوني كي أشاركهم الطعام..

لا يمكنُ لأحدٍ أن يتخيَّلَ مقدارَ فرحتنا عندما جاءت الكهرباء.

الرذيلة الفضيلة..

دُعيتُ لإلقاءِ مُحاضرةٍ في إحدى الجامعاتِ العريقةِ . كما جرت العادة . باعتباري واحداً من أهمّ المُتحدِّثين في عصرنا الراهن.

خلال السنواتِ التسعِ الماضية، ألقيتُ ما لا أذكرُ عددهُ من مُحاضرات حولَ كثيرٍ من القضايا في علمِ الاجتماع.

جميعها دون استثناء، كانت ناجحة.

بصدق، لم أفلح في اختيارِ موضوعٍ جديد للمحاضرة المقبلة.

قبلَ مسائين من موعدها، هاتفني صديقي كي نلتقي.

ادّعيتُ الانشغالَ كاذباً واعتذرتُ عن الحضور.

هنا أضاءَ المصباحُ فوقَ رأسي داخل غيمةٍ بيضاء.

أثارتني الفكرة، وكي أزيدَ الإثارة، قرّرتُ ألا أدوّنَ حرفاً على الورق.

في اليومِ المنشود، امتلأت القاعةُ عن بكرةِ أبيها بالطلابِ والإعلاميين والمُهتمين.. وأزفَ الموعد.

حينَ اتّخذتُ مكاني أمامَ الجميع، طلبتُ منهم إغلاقَ هواتفهم المحمولة..

وبينما كنتُ أشعلُ سيجارة، قلتُ لمن يزعجهم منظرُ الرجلِ المُدخِّنِ أن يغادروا على الفورِ لأنني لن أراعي مشاعرهم الجيّاشة.

استنكرت إحدى الفتيات:

.هذه ديكتاتورية.

قلت:

.أنا ديكتاتوري بطبعي.

انسحبت الصبية وصديقها مع عددٍ من الطلابِ لكنّ الغالبية بقيت في أماكنها.

بعد دقيقةٍ من الغمغمة، سادَ الصمت.

استدرتُ وكتبتُ على اللوحِ الأبيضِ بخطٍّ كبير:

(الرذيلة الفضيلة..)

أمعنتُ النظرَ في الوجوهِ وأشرتُ إلى شابٍ يجلسُ في المقاعدِ الأمامية.

استأذنتهُ بالوقوفِ ثمَّ حين فعل سألت:

.أنتَ طالبٌ في هذه الكلية؟

أومأ بالإيجاب، وبعدَ أن عرّفَ باسمهِ وأنه في السنةِ الرابعةِ قلت:

.لنفترض أن تخرّجكَ من الجامعة يتوقّفُ على مادةٍ واحدة.

أستاذُ هذه المادة، من أكثرِ الأشخاصِ الذين تكرههم في الدنيا استناداً إلى كثيرٍ من الأسبابِ الخاصةِ بك.

سحبتُ مجّة من التبغِ وأضفت:

هذا الأستاذ، في الامتحان، طلبَ منكَ أن تصفهُ بسطرٍ واحدٍ كمُعلِّمٍ قدير..

كن صادقاً وأخبرنا.. ماذا ستكتب؟

ابتسمَ الشابُ بحياءٍ وقال:

.على الأرجح سيكونُ سطراً في مدحه.

قلتُ:

.يعني ستكذب.

.أريد أن أتخرَّجَ من الجامعةِ ولن أدعَ سطراً واحداً يقفُ عائقاً.

شكرتهُ ثمّ أشرتُ إلى فتاةٍ جميلةٍ تجلسُ في منتصفِ القسمِ الأيمنِ من المُدرّج.

بعدَ أن وقفت سألتها:

.سامحيني على المثالِ الذي سأسوقهُ لكنّه ضروري:

.أقمتِ علاقةً مع صديقكِ وفقدتِ بعدها غشاء البكارة نتيجة التهوّر.

فيما بعد، أرجعَ طبيبٌ ماهرٌ من خلالِ عمليةٍ بسيطةٍ عذريتك.

مضتِ الأيّام وانفصلتِ عن حبيبك..

بعدها بمدّة، تقدَّمَ رجلٌ ثريٌّ للزواجِ بك.

السؤال:

. هل ستخبرينهُ عن عمليةِ إعادة العذريّة والتفاصيل التي سبقتها في حال سألكِ عن ماضيك؟

بعضُ الأغبياءِ من الحاضرين لم يمنعوا أنفسهم عن الضحك.

من حسنِ الحظّ أنّ الفتاة كانت واثقة بنفسها فلم تكترث وأجابت:

.على الأرجح، لن أفعل.

.ستكذبين؟

.حياةٌ واعدةٌ تنتظرني ولن أسمحَ لخطأ تافهٍ أن يقفَ في طريقي.. سأكذب.

شكرتها فجلست.

أشعلتُ سيجارةً جديدة ورحتُ أتمشّى على المسرحِ الصغيرِ أمامَ الحضور.

شدّت انتباهي ملامحٌ داكنةٌ لرجلٍ ستيني يجلسُ في المقاعدِ الأماميّة.

حين استأذنتهُ بالوقوف، فعل.

بابتسامةٍ مقتضبة، أستفسرتُ عن سببِ حضوره فهو بالتأكيد ليسَ طالباً.

أوضحَ الرجلُ بلباقةٍ أنّه من المعجبين أشد الإعجاب بمؤلفاتي.

ثمَّنتُ اهتمامهُ وحرصهُ على المجيء، ثمّ سألته:

. لنفترض جدلاً يا عم، أنَّ الأختَ التي أجابت عن سؤالنا السابق هي.. كريمتك.

بطريقةٍ ما، كنتَ على علمٍ بتلكَ التفاصيلِ الدامية التي حدثت معها وألهمكَ الله السماح.

عندما يتقدّمُ الرجلُ الثري للزواج بها، وقبل إتمام الإجراءات، في حالَ سألكَ عن ماضيها ببراءة..

هل ستخبرهُ عن عملية رتقِ الغشاء!

اضطربت ملامحُ الرجلِ فبالتأكيد لم يكن سؤالاً يسرّ أحدٌ سماعه.

بعدَ تفكيرٍ قال:

.لن أخبره ولن أخبر أحداً.

حتّى نفسي سأكذبُ عليها إن سألتني عن الموضوع.

شكرتهُ وعدتُ أدراجي إلى منتصفِ المسرح، ثمّ أمعنتُ النظر في الحضورِ وسألت:

.هل الكذبُ قيمةٌ أخلاقية إيجابية أم سلبية؟

أكثر من إجابةٍ وصلت من هنا وهناك، لكنّني قاطعتُ الجميعَ وقلت:

إن كانت حياتكَ كما تُخطِّطُ وترسمُ لها مُتوقفة على (كذبة)، هل تكونُ هذه الكذبة ذنباً أم طوقَ نجاة!

وأرجوكم لا تتحدثوا عن القضايا الكبرى كالوطنِ والله، حتّى هذه القضايا تحتملُ الكذب.

برأيكم؟ هل الحياةُ ممكنة دونهُ!

وهل الكذبُ فضيلة أم رذيلة...

طبعاً، لم أكن أنتظر الجواب.

فوقَ أرضِ الذاكرة

لم أكن مُدمناً على لعبِ الورقِ بل على أجوائه فأقصى ما يمكنُ للواحدِ منّا أن يربحهُ خلال السهرة، بضع كؤوسٍ من لترِ العرق والقليل جداً من المُكسّرات الرخيصة التي يدفعُ ثمنها الخاسرُ وشريكهُ في الهزيمَة.

تلكَ الغرفة في كرمِ الزيتون الصغيرِ الذي يمتلكهُ والدُ عزّام، أنتم لا تعرفونَ كم كانت دافئة رغمَ عُري جدرانها.

رغمَ الحفرِ الصغيرةِ المتناثرةِ بينَ أحجارها التي اعتادت أن تضمَّ أربعة شُبّانٍ ينفثونَ دخانَ التبغِ وهم يرمونَ أوراقَ اللعبِ بتوترٍ حيناً وقهقهةٍ في أغلبِ الأحيان.

قلّما اجتمعنا فيها صيفاً فلكلِّ واحدٍ سبله، أمّا شتاءً، كانَ الأمرُ مختلفاً.

نُمضي النهارَ في تصريفِ شؤوننا أو تصريفها لنا، وما أن يأذنَ المساء، نجتمع فيها تِبَاعَاً كأنّنا على موعد. وكنّا كذلك بِحق.

للشتاءِ في اللاذقيةِ القديمةِ أسرارٌ ليسَ بمقدورِكَ كشفُ سِترها دونَ القدرةِ على فهمِ ما تقولهُ قطراتُ المطر العالقة بحوافِ النوافذِ وأوراقِ الشجر قبيلَ لحظاتٍ من سقوطها الحر.

بعدَ أحد عشر عاماً، ستنشبُ حرب.

فيها سيموتُ اسماعيل بعدَ أن يُفرغ أحدُ الدواعشِ مخزناً كاملاً من الرصاصِ داخل جسده النحيلِ شرقَ البلاد.

أشجارُ الكرمِ عن بكرةِ أبيها، سيتمّ اقتلاعها.

الغرفة العتيقة لن يعودَ لها من أثرٍ سوى فوقَ أرضِ الذاكرة.

ذاتَ مساء، فاجأنا عزّام بمصباحٍ مُحاطٍ بقمع.

بعدَ ترتيبات التثبيتِ فوق الطاولة، أصبحت جودة الإضاءةِ أفضل.

قال زكريا:

.من أجلِ هذه المبادرة الطليعيّة، السَّكرةُ اليوم على حسابنا.

وبعدَ ابتسامةٍ سخيفةٍ أضاف:

حتّى إن خسرتم ومسحنا بكم هذه الأرضية الإسمنتية الجميلة.

كنتُ في تلكَ الأثناء اتخذُ مكاني قبالة شريكي عزّام..

ما أن فرغت من لفِّ سيجارة وإشعالها حتى قلتُ لزكريا ساخراً:

.تعجبني نباهتك الممزوجة بالغباء.

في لعبة (التريكس)، ثمّة أربعة ممالك، واحدة لكلّ لاعب.

في كلِّ مملكة خمسة تسمياتٍ يحقُّ له أن يختارَ بينها بما ينسجمُ مع طبيعةِ أوراقهِ وهذه التسميات هي:

(ختيار الكوبة، البنات، التريكس، اللطوش، الديناري).

كمحترفٍ أنتَ وشريككَ عليكما أن تتجنبا في تسميةِ الختيارِ حملهُ وفي تسمية البنات حملهنّ وفي تسمية الدينار حملَ أوراق الديناري.

أمّا في تسميةِ التريكس، يبدأ صاحب المملكة بوضعِ ورقة الشابِ على الطاولة، ومن ثم يبدأ الآخرون بوضعِ العشرة ومن ثمّ التسعة... إلخ.. ومن ينهي أوراقهُ أولاً يحصلُ على 200 نقطة موجبة ومن ثم 150 للثاني، و100 للثالث، و50 للرابع.

في لعبةِ التريكس كما في رقصةِ السامبا.. التفاهمُ بين الشريكين أساسُ الجمالِ والنجاح.

أمّا سوءُ التفاهم فأساسُ الصراخِ والشتائم الأرضية و.. السماوية.

بعدَ ثمانية أعوام، سيصبحُ عزّام مقاولاً ويغتني بفضلِ الأرضِ التي استثمرها والدهُ وحوَّلها إلى عمارات.

للحربِ وجوهٌ كثيرة.

التواصلُ بيننا سينقطعُ بشكلٍ نهائي.

في ذلكَ المساء، اشتدَّ عصفُ الرياحِ وتساقطَ المطرُ كما لم يفعل منذ سنين..

قُطِعت الكهرباء.

.خسارة.. لم يتركوا لنا فرصة الاستمتاع كثيراً بمصباحِ عزّام الدين.

قالَ زكريا ساخراً وهو يشعلُ لفافةً ويرشفُ ما تيسَّرَ له من الخمر.

.لو أحضرتَ صلعة أبيك، لأنارت المكانَ دونَ الحاجة إلى مصباحي..

أجابَ عزام وهو يشعلُ قنديل الكاز ثمّ أردف:

.لن ندع طارئاً تافهاً كانقطاعِ الكهرباء يمنعنا عن الاستمتاعِ بتهزيئكم.

بعد تسعِ سنواتٍ سيكونُ زكريا زوجاً مطيعاً لزوجته.

لا يخرجُ من بيته إن لم تسمح له ولن يقولَ مرحباً لأبيهِ الأصلع إن لم تأذن بذلك.

سيكونُ مثالاً جيداً لكلِّ باحثٍ في علومِ الهندسةِ الجينية عن كيفية تحوّلِ الإنسانِ إلى كلبٍ ذليل.

كانت الكوؤس تقرعُ والمشادات تحتدمُ وتتلاطمُ عندما يسيءُ أحدنا فهمَ شريكهِ أو يعاكسهُ الحظ.

وعلى الرغمِ من الهواءِ المُتسلّلِ عبرَ الشقوقِ في الجدران، لم نكن نشعرُ بالبرد..

بعدَ سبعِ سنواتٍ سأحزمُ حقيبتي وأرحلُ بحثاً عن الكنزِ وراء الحدودِ البعيدة.

سأكتبُ بعض القصصِ التي تتحدثُ عن أماكن لا تشعرُ فيها بالبرد.

أماكن تبثُّ الدفءَ دونَ الحاجةِ فيها سوى للأصدقاء.

سردٌ سينمائيٌ لحياةٍ قديمةٍ في دمشق

عندما تجرَّأتُ ووضعتُ يدي فوقَ يدكِ لأوّلِ مرة...

لعلّكِ نسيتِ، لا بأس..

.في مقهى الصحافةِ بدمشق، قبلَ سبعة عشر عاماً.

المكانُ مزدحمٌ بالطلابِ والضجيجِ والدخان، وفي الخارجِ مطر.

عليكِ اللعنة.. أشياءٌ كهذي كيفَ تُنسى.

أذكرُ جيداً تلكَ الابتسامة وإحساسي بيدكِ التي سحبتها بعد دقيقةٍ متذرعةً بالدراسةِ كي تغادري ..

عليكِ وعلى الدراسة اللعنة..

ما الذي كنتِ ستخسرينهُ لو تركتها لدقيقة إضافية.

أعرفُ حكّامَ كرة قدم أرحمَ منكِ بألفِ مرّة، يمنحونَ عوضَ الدقيقة.. دقيقتين.

.حديقةُ المدينة الجامعية بعدها بشهرٍ.. لعللكِ نسيتِ، لا بأس.

حين سرقتُ من شفتيكِ أوّل قبلة.

ما أن أفقتِ من مداهمتي بثوانٍ حتى دفعتني وركضتِ بعيداً..

دعيني أخبركِ بعد انقضاءِ هذي السنين، طعمُ تلكِ القبلةِ أشهى من كلِّ النبيذ الذي سفحتهُ والقصصِ التي كتبتها.

عليكِ اللعنة، ما الذي كنت ستخسرينهُ لو بقيتِ لدقيقةٍ إضافية كي أصلَ إلى الريق..

دقيقةٌ واحدة يا لئيمة ..

أعرفُ حرباً بقيت تسع سنواتٍ دونَ أن تبارحنا وعينها على العاشرة...

.مطرٌ في الصالحية

في تلكَ الحديقةِ المتاخمةِ لحافةِ الزمن، ثمّة عجوزٌ يبيعُ غزلَ البنات.

في زاويةٍ ما، امرأة مع ثلاثةِ أطفالٍ يحثّون الخطا، وقطة تبحثُ عن ملجأ..

صدقيني، نيّتي كانت صافية حينَ احتضنتكِ كي أقيكِ من البلل.

لم أتعمد أن يلامسَ صدري صدرك، لكن الأمرَ حصلَ ولن أعتذر ..

مهلاً، نيّتي لم تكن صافية وعليكِ اللعنة..

ما الذي كنتِ ستخسرينهُ لو بقيت لدقيقةٍ أخرى كي أمتلأَ بذاكَ الشعور!

أعرفُ هموماً تدخلُ القلبَ مرةً واحدة، ثمّ تبقى إلى الأبد..

.مهرجان دمشق السينمائي.

قولي أنكِ نسيتِ، لا بأس ..

كانت المرة الوحيدة التي شعرتُ فيها بأهميةِ البطاقة الصحفية.

شاهدتُ جميع الأفلام في سينما الشام، مجاناً.

في ذلك المساء، الصالة مزدحمة والفيلم (وداعاً لينين) ..

سامحيني، لم أعد أذكرُ منه سوى وجهكِ وأنتِ تقولين:

. وداعاً..عليّ ألا أتأخرَ أكثر..

سامحكِ الله، ما الذي كنت ستخسرينهُ لو بقيتِ حتى ينتهي الفيلم..

لم أكن أطمح سوى لاستنشاقِ عطركِ أكثر.

.كراج البولمانات في حرستا.. مئاتُ المسافرين وغيمٌ داكن ..

شهادتان جامعيتان وحقيبتان كبيرتان فوقَ الرصيف لكن..

ليسَ إلى نفسِ المكان ..

سيجارة أخيرة قبل الانطلاقِ ووداع دمشق..

سامحكِ الله..

ما الذي كنتِ ستخسرينهُ لو وافقتِ على اقتراحي بالرسوبِ عمداً كي نمشي في دمشق أكثر ..

أعرفُ حياة تأتي مرة واحدة.. ولا ترجعُ أبداً.

قصةُ مطارٍ عسكري

فرَّ الضابطُ المسؤولُ على متنِ طائرةٍ خاصةٍ تاركاً خلفهُ أكثرَ من ألفِ جندي مدجَّجٍ بالخيبة.

استيقظَ معين صباحَ ذلكَ اليومِ على وقعِ البلبلةِ والضجّةِ التي أحدثها زملاؤه.

حينَ استفهمَ عمّا يجري، أخبروه أنَّ الضابطَ فرَّ تاركاً إيَّاهم دونَ عتادٍ أو ذخيرةٍ في حاميةِ المطارِ العسكري النائية.

بجزعٍ سألَ عن الاتصالاتِ بالقيادةِ الحكيمة فكانَ الجواب:

.الله أعلم ..

ريثما استوعبَ الأمر، كانَ معظمُ الجنودِ قد جمعوا ما يحتاجونهُ من أغراضٍ شخصيةٍ في حقائبهم وسلّموا أقدامهم للريح.

بغايةٍ مُبهمة، أطلَّ برأسهِ من نافذةِ المهجع فطالعتهُ بعضُ المعدَّاتِ التعيسةِ دونَ أن يلمحَ طائرة واحدة.

منَ الجهةِ الشرقيةِ هبّت رياحٌ صفراء حمَلت معها الغبار، وفي الأفقِ الباهت، تحرَّكت أشباحٌ بَدَت كالنِّقاطِ السوداء.

بلمحِ البصرِ وضّبَ حقيبتهُ ثمّ أصبحَ في الخارج .

كانَ القسمُ الأوّلِ من الجنودِ قد أسرعَ راكضاً نحو الهلاكِ الذي لم يعد بادياً كأشباح..

أصبحَ أكثر وضوحاً على هيئة.. سيَّارات.

لم تكن تلك السياراتُ ذاتِ الدفعِ الرباعي إلا للتنظيم المتطرفِ الأكثر شهرة على الساحةِ العالميةِ بسببِ أفعالهِ المصوَّرة بأحدثِ كاميرات العم سام.

تمكّنت سيارات التنظيمِ من الوصولِ إلى المكانِ بسهولةٍ عزَّ نظيرها دونَ أن تتعرضَ لصاروخٍ واحد.

وقعَ القسمُ الأول من جنودِ الحامية في قبضةِ الأشباح.

استطاعَ معين أن يتَّخذَ مع بعضِ الرفاقِ طريقاً مُغايراً.

على بعدِ ألفِ مترٍ خلفَ تلةٍ ترابية، عثروا على خندقٍ قديمٍ أمكنت مداراتهُ إثر الاختباءِ فيه بأعشابٍ بريّةٍ حتى كادَ من أصبحَ داخلهُ غيرَ بادٍ للعيان .

انسلّت المجموعة إلى قلبِ الخندق لكنهُ لاحظَ توقّفَ السياراتِ فجلسَ مع رفاقه يراقبونَ.

حاولوا كثيراً أن يجروا الاتصالات بقيادتهم لكن... دون جدوى.

قامَ عناصرُ التنظيم بجمعِ جنودِ الحامية ثم أمروهم بالانبطاحِ أرضاً مصوبينَ فوهات البنادق نحو رؤوسهم.

حافظَ قائدُ المجموعة الملتحيةِ عن بكرةِ أبيها على جهوزيتهِ مُصوّباً السلاحَ باتجاه الجنودِ ثم قالَ لرفيقِ الجهادِ المُمَوَّل :

.الله أكبر..

عاصفةٌ من الرصاص انطلقت فاهتزَّت على إثرها أجسادُ الرجالِ في رقصةٍ تذكاريةٍ للموتِ على شرفِ المزادِ السرّي.

كانَ معين يرى ولا يصدق.

انفجرَ الدمعُ من عينيه.. لم تكن دموع الحزن بل دموع العجز.

حتى لو تقدمَ من رفاقهِ الذينَ يلفظونَ أنفاسهم الأخيرة، ما الذي باستطاعتهِ أن يفعله سوى مشاركتهم الموت؟

لم ينجُ أحد ..

اخترقَ الرصاصُ أجسادَ الرجالِ وسالت دماءٌ غزيرةٌ فوقَ الرمال ثم غدت في قلبه.

لم ينجُ أحد.

كانَ عددُ الأرواحِ التي انطلقت صوبَ السماءِ كبيراً جداً فلم يساور عناصرَ التنظيمِ شكّ بوجودِ غيرها.

امتطوا صهوات سيارات الدفع الرباعي وانصرفوا.

بارِكَ الجهاديون لبعضهم نجاحَ العملية وهناك..

في مكانٍ ما بالقربِ من مركز القيادة..

حطَّت طائرة على متنها ضابطٌ أدى المهمة على أكملِ وجه.

موسمُ قطفِ الزَّيتون

ناولتني خالتي الكبرى العصا فعاينتُها وكانت من القصبِ الطَّويلِ ثمَّ قُلت:

.آسف، لا أستطيعُ شقَّ البَحر.

شتمت والدي وقالت:

.اصعد بلا ثرثرة، غداً عندما تسكبُ أنتَ وإخوتكَ الزيتَ فوقَ طعامكم بلا حسابٍ لن أسمعَ دعاباتكَ السخيفة.

كانت أمّي تلتقطُ حبّاتِ الزَّيتون التي تناثرت حولَ الشجرةِ غير المُحرّمة بعدَ أن أسقطهَا أبي وأَخوالي برماحهم الخشبية وهُم يمتطونَ صهوةَ السَّلالمِ الحديدية لِيصبحوا أقربَ إلى الأغصانِ العالية .

بالقربِ من كرمِ الزيتونِ الذي تركهُ جدّي لدزّينةِ أبناءٍ على تُخوم قريةِ بسنادَا، تَمتَدُّ كُرُومٌ شاسِعةٌ أُخرَى.

حَولَ كُلِّ زَيتونةٍ أسرَةٌ أو بَعضُ أفرَادِهَا يَقطفونَ الثِّمَارَ المُقَدَّسَةَ كما لو كانوا يَرضَعُونَ مِن ثَديهَا ..

والدُّنيَا آخرُ أيلول.

قالَ أبِي :

.اسمعِ الكَلامَ واصعَد، نُريدُ أن نَفرغَ قبلَ حلولِ المَسَاء .

لم يكن أمامي من مفرّ.

بدأتُ تسلُّقَ الأغصانِ حتَّى غدوتُ أعلى الشَّجرَة ورحتُ أضربُ حبَّاتِ الزَّيتونِ بالعَصَا لتهطلَ مَطراً أخضر فوقَ تلكَ الأرضِ المُطرَّزةِ بأصنَافٍ مُدهشَةٍ مِنَ الأعشابِ والزُّهورِ البَرّيَّة .

خَالِي الذي سَيُرسِلُ لِي بَعدَ خَمسَة عَشرَ عَاماً تَأشيرةَ زيارةٍ إلى دُبي حيثُ يُقيمُ كي أبحثَ عَن فُرصةٍ ثمَّ أعمل صحَافياً لِسنواتٍ طِوالٍ في إحدى المَجَلات، كان لا يزال يومها مُعلِّمَاً لِلُّغةِ الإنكليزيةِ في مَدرسةِ القرية.

فوقَ صخرَةٍ كبيرةٍ ومَلساء إلى جوارِ الشَّجرة الَّتِي نَجمعُ ثِمارهَا، فَرشَ غِطاءً بُنِّيَّاً تربّعَ عليهِ وَراحَ يَعزفُ على العود.

عندمَا وَبَّختهُ شقيقته لِعدمِ مُشَارَكتِهِ في حملَةِ تَجمِيعِ الزَّيتونِ أجابَها دونَ أن يوقفَ العزف :

.فِي لِنَا يَا حُب خَيمِةْ عَ الجَبَل

خَدَرٌ مُتعِبٌ أصَابَ سَاعِدِي بَعدَ سَاعَةٍ مِنَ الجهدِ الشَّاق.

تَوقَّفتُ عن العمل وَاتَّكَأتُ عَلَى الغُصنِ الكَبيرِ ثُمَّ رَمَيتُ بَصَرِي نحو البَعيد .

نَعَم، كَانَ بِالإمكَانِ رُؤيةُ السَّاحِلِ السُّوري مِن رَأسِ الخِنزيرِ التُّركِي حَتَّى مِينَاءِ اللَّاذِقيةِ بِمُجرَّدِ الوقوفِ أعلَى شَجرةِ زيتونٍ في تلكَ الهضبة.

كما كانَ بالإمكَانِ رُؤيةُ السَّهلِ المُتاخمِ بحقولِهِ والبيوتِ المُتَنَاثِرَةِ هُنَا وَهُنَاك .

ذَاتَ يومٍ سَمِعتُ أحَّدهَم يَقول:

.أهلُ المُدنِ مكتئبون لأنَّ الجُدرَانَ تَقفُ أمَامَ أعيُنِهِم دَائِمَاً.

نَادَت أُمِّي بِأعلَى الصَّوتِ كَي نَجتمِعَ حولَ الطَّعَام.

توقفَ خالي عنِ العزفِ وانضمَّ إلينا ثُمَّ بدأت الوليمة.

من رَاديو قَديم علَّقهُ وَاحدٌ مِن قاطفي الزَّيتونِ فِي الكرمِ المُجاور على جذعِ شجَرةِ شدا رَفِيق شُكرِي :

.بِالفَلا جَمَّال سَاري.. قُلت رَايح فين ..

أنهيتُ التهامَ ِالطَّعَامِ وَخَلفَ الصَّخرةِ المَلسَاءِ وَضَعتُ ثَلاثَةَ أحجَارٍ على شَكلِ مُثلَّثٍ ثمُّ بدأتُ أجمعُ الحَطَبَ وَفِي الفَرَاغِ بينَ تلك الأحجَارِ رَاكمتُه .

ملأت الإبريقَ بِمَاءٍ عَذبٍ مِن العُلبِ البَلاستيكيةِ التِي نُحضِرُهَا مَعنَا وفوقَ المُثَلَّثِ الحَجَرِيّ رَكَزتُ الإبرِيقَ ثُمَّ أضرمتُ النَّار وصنعتُ الشَّاي .

كَانَت طَلائِعُ الغُرُوبِ تَرسمُ بِشِفَاهِهَا عَلَى أجسَادِ الرَّبَابِ قُبَلاً وَردِيَّةً مُخَضَّبَةً واللازورد فِي السَّمَاءِ يذوبُ رويداً رويداً.

أشعَلتُ مِن عُودٍ مُحتَرقٍ سِيجَارَة جَذبتُ أنفَاسَهَا بَعد رَشفَةٍ مِنَ الشَّاي وسمعتُ أبي يَقُول :

.دَعُونَا نَجمَعُ مَا تَبَقَّى عَلى الأرضِ مِن حَبَّاتِ الزَّيتُون قبلَ أن نُغادر .

قَالت خَالَتِي وَهيَ تَحثُّنَا عَلى النُّهوض:

.لسنَا أغنِياء لكنَّنا نُطعمُ أنفسَنَا وَلسنَا بِحَاجِةِ أحد، مَا دُمتُم لا تَحتاجُون أحداً فأنتُم أحرار.

كنتُ أراقبهم مِن مَكَانِي خلفَ الصخرةِ الكبيرةِ حيثُ النَّار ومِن بينِ أغصَانِ الزَّيتونِ بَدأت عشراتُ المَصَابيحِ تَشِعُّ في تلك الكرومِ مَع قُدومِ المَسَاء .

ألفُ ليلة وليلة

في الحانةِ جلستُ وحيداً.

شربتُ ما تيسّرَ من البيرةِ والسجائرِ ثمّ انصرفتُ دونَ أن ألمسَ بائعة هوى.

مزاجي كانَ مضطرباً.

منذ عامٍ وأكثر، أريدُ الاستماعَ بصفاءٍ لأمّ كلثوم وهي تغنّي (ألف ليلة وليلة)، لكنّ الدنيا اللئيمة تأخذني وتعيدني وأخجلُ من قولِ ما تفعلهُ بي.

.في السيارةِ أسطوانةٌ تضمُّ عدداً كبيراً من أغاني السّت وهذا أمرٌ جيد.

قلتُ لنفسي وأنا أقودُ عائداً إلى غرفتي.

.الأغاني الجميلة مثل النساء، مع مرورِ الزمنِ يبقى حبهنَّ في القلبِ لكنهُ لا يُقارنُ بأوّلِ العهد.

ذاكَ الذي يحفرُ في وجدانِ الرجلِ كنقش.

لم يستطع أحدٌ أن يعبّر عن هذا أفضلَ من ابن درويش حين قال:

.(على هذه الأرضِ ما يستحقُّ الحياة... أوّلُ الحُب).

لم يقل الحب، قالَ: أوّلُ الحب.

كانَ لصديقي سطحُ منزلٍ عالٍ يشرفُ على بحرِ اللاذقية وكنّا في ميعةِ الصبا.

وبينما كنتُ مسحوراً بصوتِ فيروز والمتّة كانَ صديقي مفتوناً بصوتِ أم كلثوم، والشاي.

ذاتَ مرة.. وكانت الشمسُ ترتدي قميصَ الغوايةِ قال:

.لا يمكنكَ أن تتخيلَ كم الطقسُ مواتٍ كي نستمعَ لأمّ كلثوم الآن..

كنتُ مأخوذاً بالمشهدِ فقلت:

.تفضّل وأتحفنا بأمِّ كلثومكَ يا أستاذ.

بدأت الموسيقى بثلاثِ ضرباتٍ على الإيقاع تبعها همسٌ من الكمان.

ثلاثُ ضرباتٍ أُخر وهمسةٌ من الكمان.

ثلاثُ ضربات جديدة أقوى بقليلٍ ثمّ نداءٌ أقوى من الكمان.

كأنّه رجلٌ يستجدي امرأة تتغنج، تريدُ ولا تريد.

بعدَ ذلك جاءَ دورُ السيكسافون ليقولَ ما لا فمٌ قالهُ ولا سمعته أذن لكن..

يدَ خورشيد وهي تداعبُ الغيتار فهمت كلَّ شيءٍ من النظرةِ الأولى ثمّ عادت آلاتُ الكمان لتستلمَ زمامَ المُبادرةِ بجديّة هذه المرة وكأنها تقول:

.أوتاري هي الآمرة الناهية فأطيعوها.

نامت الشمسُ في مخدعِ عشيقها خلفَ الأفقِ البعيدِ والموسيقى ما تزال حاضرة.

كنّا نشربُ الشّاي بصمتٍ حين فاجأني صديقي بسيجارة مارلبورو.

كانت سجائرُ المارلبورو حلماً صعبَ المنال فنظرتُ إليه شَزراً لكنهُ وضعَ سبابتهُ أمامَ شفتيه وقال:

.(صه، ولا تسأل من أين لكَ هذا).

ثمّ رحنّا ندخّنُ بشراهةٍ بينما تشدو أم كلثوم:

.يا حبيبي، الليل وسماه..

حتّى أوراق شجرةِ الحورِ تمايلت لصوتها كأنَّها تقول:

.الله الله...

توالت أسطورة ألف ليلة وليلة..

.بكلّ العمر...

***

دبي، مدينةُ الأضواءِ المُتقدة على مدارِ الساعة، كانت شوارعها الواسعة تنفردُ أمامي في طريقِ عودتي من الحانةِ بينما أستمعُ للأغنية الساحرة عابّاً من دخاني والساعة جاوزت الثالثة بعد منتصفِ الليل.

قدتُ السيارة ببطءٍ مُتعمّداً أن يكونَ الصوتُ قوياً نكاية بناطحاتِ السحاب وإكراماً لشجرةِ الحورِ التي تمايلت أوراقها ذاتَ يومٍ وهي تسمعُ أمّ كلثوم كأنّها تقول:

.الله الله.

طابورُ سوريا العظيم

في الآونةِ الأخيرة، وبعدَ دخولِ البلادِ عامها التاسع منَ الحرب، لاحظَ الشعبُ أو ما تبقى منهُ أمراً غريباً.

بحماسٍ مُريب، بدأت وسائلُ إعلامِ الدولةِ الأوليغارشيّة تنقلُ شكاوى الناسِ وأوجاعهم عبرَ أدواتها، المسموعة، المكتوبة والمرئية .

لم يفهم أحدٌ سرَّ هذا التحوّلَ الغرائبي في النظرةِ إلى همومِ البشرِ المقهورين وعذاباتهم.

هذهِ البلاد، منذ أجيال، لا مكانَ فيها سوى لمشاعرِ الحزبِ الحاكم وآرائهِ العظيمة.

وهي ومن بابِ الصدفةِ البحتة فقط، لا تتفقُ مع كرامةِ الإنسان.

ازدادت الحيرةُ بين الناسِ إزاءَ الاهتمامِ الرسمي بمطالباتِ لقمةِ الخبزِ وتوفيرِ الدواءِ والقضاءِ على الفسادِ ومحاسبةِ المسؤولين الذين اغتصبوا جميعَ أطيافِ المجتمعِ بالقضيبِ الفولاذي لخيانتهم وعمالتهم المُتجذِّرة.

وكما أكّدت الرواية الرسمية، أعضاءُ مجلسِ الشعب، لن يكتفوا بكونهم (أعضاء) فقط، وسيتحوّلون من 250 مُهرجٍ إلى 250 ناطق بالحقّ ومُدافعٍ عنه .

هكذا، سيصلُ صوتُ الفقراءِ وجرحى الحربِ وذوي الشهداءِ والناس البسطاء، إلى مسامعِ القائد المُلهَم والتاريخي.

الآمالُ غدت كبيرة، وثمّة من سمعَ أحدهم يقولُ في إحدى السهراتِ على ضوءِ (الشموعِ) أثناء انقطاعِ الكهرباءِ لساعاتٍ.. وساعاتٍ.. وساعات:

. أعتقدُ أنها مسألة أيام ولن نقفَ في طوابير الخبز والبنزين، لن نبردَ في الشتاء.

أبناؤنا لن يُحشروا كالأغنامِ في مدارسٍ لا تصلحُ كحظائر..

وجميع الأموالِ المنهوبة ستستخدمُ لبناءِ أفضلِ المراكزِ التعليميّة والمستشفيات.

شخصٌ آخر دبَّ الأملُ فيه قال :

تابعتُ أوّلَ أمس برنامجاً على القناة الفضائية أكّدَ فيه الضيفُ .وهو من كبار المسؤوليين الحزبيين المناضلين .أنَّ جميعَ مؤسساتِ الدولة ستصبحُ نظيفة من المرتشين لأنّ الرواتب ستصلحُ للحياةِ الآدمية.

أشعلَ سيجارة إثرَ توقّفٍ لالتقاطِ أنفاسهِ المُتسارعة وأضاف:

.أقسمُ أيها الأصدقاء، وقبلَ انقطاعِ الكهرباء بدقيقتين كانَ يقول:

.سنعيدُ إلى المعلمِ كرامتهُ لأنه حجرُ الأساس..

بائعة الهوى ستغوصُ في هذا المجالِ فقط عن شبقٍ واقتناع، لا لأنها مُجبرة من أجلِ لقمةِ الطعام.

ثمّ مرّت الأيامُ والشهور، لكن لا شيءَ تغير..

إعلامُ الدولةِ يتحدثُ عن أوجاع الناس بالفعل، لكن، بخيبةٍ وحسرة، لاحظَ سكّانُ البلادِ أن طوابير الانتظارِ تطولُ أكثر، وطوابير الذلّ تتمادى أكثر.

وكما يستطيعُ روادُ الفضاءِ .حسب الأسطورة .أن يروا سورَ الصين العظيم من فوق، ها هم يرون طابورَ سوريا العظيم إلى جواره.

المدارسُ من سيءٍ إلى أسوأ..

مكانة المُعلّم من قاعٍ إلى أعمق..

أساسُ الحياةِ شبهِ شبهِ شبهِ الكريمة، تقوّضَ كما لو كانَ، إلى الأبد .

سرٌّ داكنٌ لم يفهمهُ أحد..

لماذا ينقلُ الإعلامُ الرسمي صراخَ المواطنين وأوجاعهم في حين، ما زالت الطبقة الحاكمة هي ذاتها من يسيطرُ على كلّ شيء، بحقدٍ وغل .

إثرَ مدةٍ، بدأ الناسُ يتناقلون نظرية جديدة بدت مُقنعة أكثر من الرواية الرسمية.

نظرية سمعوها لأولّ مرةٍ من شخصٍ غامضٍ بلحيةٍ كثيفةٍ وخطها الشيبُ وسيجارةٍ لا تُفارقُ شفتيه.

فيها تحدَّث، وكانت العاصفة مُستعرة في الخارج، عن نوعٍ غريبٍ من الساديين..

أشباهُ رجالٍ وعبيدٌ مأمورون..

لا ينتشون باغتصابِ ضحاياهم بل بصراخِ أوجاعهم وذلّهم أثناء التعذيب.

صورةٌ عتيقة لقريةِ باب جنّة

عبرَ الزجاجِ الأمَامِي لسيارةِ البيك آب تستطيعُ رؤيةَ إسفلتِ الطريقِ الباهتِ وهو يجري في الاتجاهِ المعاكس.

لم تكن تمطر، بيدَ أنَّ السّحابَ الداكنَ ارتدى جسدَ السماءِ كلّه.

عن يميننا، بدا الوادي المتاخمُ للطريقِ كفمٍ يصرخُ منذُ مطلعِ الدهر، أمَّا أشجارُ غابةِ السنديان التي سَكنت الجبل، فكانت عن يسارنا وكنَّا على وشكِ الوصول.

انحدرَ الطريقُ فجأة، وقبلَ أن يعودَ إلى وضعهِ السابقِ أخرجتُ من جيبِ معطفي علبة التبغ.

سحبتُ منها سيجارتين، واحدةٌ قدَّمتها للسائقِ وأخرى أشعلتها لنفسي.

ذاتُ الجبلِ الذي كانَ عن يسارنا قبلَ قليل، بقيَ بعد أن دُرنَا حولهُ عن يسارنا، لكنَّ الوادي تغيّرت ملامحه.

قالت أمّي:

.سيكونُ الطقسُ قارصاً، خذ كنزةً إضافية.

قلت:

.هو يومٌ واحدٌ وقد لا أبيتُ هناك، الأمرُ لا يستحق.

كانَ هذا قبلَ أن أغادرَ صباحاً من اللاذقيةِ صوبَ قريتي التي تبعدُ عنها خمسين كيلومتراً بعدَ أن مضى زمنٌ طويلٌ على آخر زيارةٍ قمتُ بها إلى هناك.

حينَ حطَّ سيرفيسُ صلنفة الرحالَ قربَ الكازينو الكبير، كانَ عليَّ أن أمشي باتجاهِ المفرقِ الذي تقودُ إحدى تفرعاتهِ إلى ضيعتي.

هكذا، ما أن وصلتُ لم أنتظر سوى ربعِ ساعةٍ توقفَ بعدها سائقُ البيك آب قربي وسألني عن وجهتي وحين أخبرتهُ قال:

.حوّل.

كانَ المقعدُ الذي جلستُ عليه مهترئَ الجلد، وفوقَ صندوقِ السيارةِ الأمامي وضعَ السائقُ صوفَ خاروفٍ فارقَ الحياةَ منذ زمنٍ طويل.

كان مُغيّرُ السّرعاتِ كمن شَهِدَ الحربين ثمَّ نجا، ومن كُلِّ شيءٍ في هذه السيارةِ العجيبةِ تنبعثُ رائحةُ تبغٍ قويَّة هي بالنسبة لي.. رائحةٌ عَطِرَة.

رحنا نُدَخِّنُ بصمتٍ ومن بينِ شقوقٍ في البابِ والسقفِ انسلَّ هواءٌ لاسع.

تذكَّرتُ نصيحة أمي وشتمتُ نفسي لأنني لم أصغِ.

أحكمتُ إغلاقَ المعطفِ وعببتُ من بقايا السيجارةِ أنفاسها الأخيرة فشعرتُ بشيءٍ من الدفء.

أدارَ السائقُ المقودَ باتجاهِ اليمين، وعلى بعدِ أمتارٍ قليلة طالعتنا لافتةٌ باهتةٌ مكتوبٌ عليها:

.باب جنة تُرحِّبُ بكم.

بنظراتٍ مشوبةٍ بالحزن والخيبة، تأمَّلتُ أرضَنا والسيارةُ تعبرُ قربها.

لم يكن أبي فالحاً في الزراعةِ ليزرعها لأنه امتهنَ التعليمَ ولم يكن فالِحاً في التجارةِ ليبيعَ قسماً منها وينقذنا من أشباحِ الفقر.

رويداً رويداً، بدأت بيوتُ أقربائي تُطلُّ على الجانبين..

من أسطحِ تلك البيوت، تتجهُ صوبَ السماءِ سلاماتٌ من دَخانِ مدافئِ الحطب.

توقفت السيارةُ أمامَ المنزلِ الذي بناهُ جدِّي منذُ زمنٍ بعيد.

على الطرازِ القديمِ تمتدُّ ثلاثُ غرفٍ كبيرةٍ بنسقٍ واحدٍ إلى جوارِ الطريقِ ولأننا نسكنُ قربَ المدينةِ كانت عمّتي مع أبنائها هم من يقطنون المنزل.

يا لتلكَ الرائحة المنبعثة من أثاثه القديم والحيطان العتيقة..

بعد أن رحَّبت بي، ثمَّ أطعمتني أشهى بطاطا مقليّة في العالم، راحتُ عمّتي تحدِّثني عن أيَّامها وكيفَ يتدبرون أمر الحطبِ للتدفأة.

استأذنتها في الخروجِ كي أمشي قليلاً.

كانَ الغيمُ الأزرقُ قد أصبحَ أشدّ كثافة.

أمامَ المنزل، راحَت شجرةُ الحورِ العارية تميلُ كمَا لو أنَّها ترقصُ بحياءٍ فقلت:

.ما زلتِ جميلة.. كما كنت.

قالت الحورة:

.أما أنتَ فيبدو عليكَ الزمن..

اتجهتُ صوبَ نبعِ القريةِ وقبلَ أن أصلَ إليهِ رأيتُ مقامَ المكزونِ في غابةِ (الحرش).

أخذتُ الطريقَ الترابي صعوداً حتى أصبحتُ قربه ثمَّ خلعتُ حذائي في الخارجِ ودخلت.

المرقدُ الأخضرُ كما عهدتهُ مذ كنتُ طفلاً، ما زالَ على حاله.

رائحةُ البخورِ تضوعُ في المكانِ كلّه..

على الجدارِ الشرقي للمقامِ ذاتُ الأبياتِ لأميرِ النحلِ ما زالت مكانها:

رضينا قسمةَ الجبّارِ فينا... لنا علمٌ وللجُهّالِ مالُ

فإنَّ المالَ يفنى عن قريبٍ .... وإنّ العلمَ باقٍ لا يزالُ

جلستُ إلى جوارِ المكزونِ فتحدثنا قليلاً ثمَّ خرجت.

ما أن أصبحتُ في الغابةِ من جديدٍ حتى شرعت الريحُ تلعبُ على سجيتها مع أشجارِ الحرش..

كانَ صوتُ سُحَاقٍ شهيٍّ يصدرُ من بين الأوراق وإني لأعترفُ أن قدرتي على احتمالِ هذا الكمِّ من الجَمَالِ ليست على ما يرام..

عدتُ أدراجي نزولاً صوبَ النبعِ..

تذكرتُ كيفَ كنّا نلهو صغاراً بمائهِ العذب واللذيذِ في إجازة الصيفِ ثمّ قلتُ لنفسي:

.هذا العمرُ يمضي بطريقة ليست مفهومة على الإطلاق.

كوَّرتُ قبضتيَّ ثمَّ رحتُ أنفخُ فيهما عندما بدأت ندفٌ من الثلجِ تسقطُ تباعاً وفي طريقِ العودةِ إلى الغرفةِ الدافئة، أشعلتُ سيجارة.

راما

في البدايات، تنجذبُ المرأةُ إلى عقلِ الرجلِ وطريقةِ تفكيرِهِ ومحاولاتهِ كي ينالَ إعجابها.

بعد زمنٍ يطولُ أو يقصر، تكتشفُ المرأة، أنّ الرجلَ الذي سمحتَ لنفسها بالوقوعِ في غرامه، بلا عقلٍ تقريباً.

كما تكتشفُ سيدتنا، أنّ معظمَ اهتماماتِ بعلها في الحياة، تنحصرُ بما تحملهُ حمّالة نهديها، ألوان ملابسها الداخلية، ما هو موجودٌ خلفَ ملابسها الداخلية، بالإضافة إلى الطعامِ وكرة القدم.

هذا الاكتشافُ العبقري يأتي غالباً، بعدَ فواتِ الأوان.

راما، بكاملِ قواها العقلية، ولأنَّني كاتبٌ مشهورٌ (نسبياً)، ظنّت لجهلٍ منها أنني مختلفٌ عن باقي الرجال.

فيما يخصُّ النساء، وبناءً على ملاحظاتِي المُتواضعة التي رسّختها بعضُ التجاربِ والكتبِ والأفلام السينمائية، ما زلنَ منذ خمسين ألف عام، يتفاجأنَ باهتماماتِ الرجلِ الوضيعة (هكذا يرونها) ويلقينَ باللومِ عليه.

ذات مساءٍ، وكنتُ قد نشرَت قبل ساعتين واحدةً من قصصي التي نالت إعجاباً ملحوظاً من قرّاءِ ومتابعي صفحتي على موقعِ التواصل، وبينما كنت أعبّ من سيجارةِ ما قبل النوم، وصلتني منها أولُ رسالةٍ تحملُ مديحاً شكرتها عليه ثم جاءت هذه الرسالة التي تتألفُ من كلمةٍ واحدة:

.بحبك.

نعم أيها السادة.. يمكنُ للمرأةِ أن تحبكَ لمجرّدِ أن تكونَ كاتباً جيداً .نوعاً ما .وهذا لا يتعلّقُ فقط بثقافتها وعشقها للكتبِ والفكرِ بل برغبتها الأزلية في أن ترى نفسها.. بطلة قصة.

ما من امرأةٍ إلا وتتمنّى أن يكتبها أحدهم في قصيدةٍ أو رواية.

التقطتُ الإشارة بسرعة ثمَّ بدأت أصفُ تفاصيلَ جسد راما وتخيلاتي عمّا أفعلهُ بها كما لو كانت قربي فلم تمانع بل راحت تجاريني معتقدة أنني سأتوقف كي تعود إلى الحديثِ برومانسية..

وهنا كانت الطامة.

.الفرقُ بين رومانسيّة المرأة ورومانسية الرجل يشبهُ الفرقَ بين مناخ سيبيريا وأدغال السافانا ومن المستحيلِ بالنسبة للأنثى أن تفهمَ ما يعنيه جسدها لرجلٍ، كباقي الرجال..

رومانسية المرأة تجبرها على رؤيةِ الدنيا داخل إطارٍ فيهِ الورود، الرحلات، المقاهي ذات الشرفات الملوّنة، الشواطئ الرملية والحدائق الربيعية، أمّا العنصر الأهمّ في هذا الكادر وجودها مع الرجلِ الذي تحبّهُ يمسكُ الواحدُ منهما يدَ الآخر.. فقط.

في الحقيقة.. رومانسية الرجلِ تدفعهُ إلى رؤية تلك الأمور بنفسِ التفاصيل لكن..

وهو يمارسُ الجنسَ مع المرأةِ التي يحبّها أو مع غيرها. ويا حبذا مع هذه وتلك في آنٍ معاً.

بعد أيامٍ قليلة، اكتشفت راما ما اكتشفتهُ جدّاتُها منذ فجرِ التاريخ، ثمّ راحت تلومُوني وتوبّخني على شغفِ رؤيةِ أدقِّ التفاصيلِ في جسدها..

هكذا، وكي أرتاحَ من (النق) أنهيت الأمرَ بالحظر.

سيداتي الجميلات.. هذا نحنُ، وهذه طبيعتنا، فلا تحاولنَ .عبثاً .تغييرها.

.ما تفرضهُ الدينا علينا من توبيخٍ ودروسٍ قاسيةٍ يكفي.. ويزيد.

هروبٌ إلى زمنٍ آخر

عندما دَخَلَتِ الحربُ السورية عامَها الرابع دَخَلتُ في حالةٍ مُتقدِّمةٍ من النكوص.

كنتُ قبلَ ذلك مُتسمِّراً أمامَ نشراتِ الأنباءِ أتابعُ العواجلَ والبرامجَ السياسية وأستمعُ إلى تحليلاتِ من هبَّ ودبَّ فأنتشي حينَ يأتي الكلامُ موافقاً هوايَ وأنفجرُ غيظاً من كلامِ الأعداء..

كأيِّ شخصٍ تافهٍ يعتقدُ أنّ آراءَ من لا يتحكمونَ بمن يحملونَ السلاحَ في المعاركِ المُحتدمةِ على الأرضِ مُهمّة، كنتُ أبدي رأيي عبر صفحةِ الفيسبوك وأشاركُ التحليلَ السياسي والعسكري..

كأنّ الحظيرة المُنفلتة تحتاجُ خنزيراً آخر.

وكما أخبرتكم.. تطلَّبَ الأمرُ أربعَ سنواتٍ كي أفهمَ أنَّ ما يجري ليسَ أكبرَ من قدراتي العقلية والبدنية السخيفة وحسب، بل أكبر من قدراتِ جنرالاتٍ ورؤساءٍ وملوكٍ وجيوشٍ وشعوبٍ وبلدان..

مما ساهمَ في تفاقمِ مرحلة النكوصِ . كما أعتقد . غربتي التي أعيشها عن سوريا منذ خمسة عشر عاماً حين انطلقتُ عام 2007 في مغامرتي بحثاً عن الكنز.

ذات يومٍ سألتُ نفسي سؤالاً هاماً:

.ما الذي أحصِّلهُ من استماعي المتواصلِ على مدارِ اليوم إلى نشراتِ الأنباء؟

كان الجوابُ بسيطاً جداً:

. اكتئاب، بؤس، قهر، انفعالاتٌ مستمرةٌ وقدرة على التأثير في مجريات الأحداثِ حجمها الحقيقي.. صفر.

هكذا، اتخذتُ قراراً حاسماً بالانقطاعِ عن متابعة أيّةِ نشرةِ أخبارٍ منسحباً من جميعِ الصفحاتِ الإخباريّة التي كنتُ مشتركاً فيها عبر الفيسبوك لتبدأ مرحلة النكوص.

سوريا التي في ذاكرتي لم يعد لها وجود على أرضِ الحقيقة فماذا أفعل؟

قرَّرَ النكوصُ أن أعيشها في المسلسلات والأفلام والمسرحيات التي شاهدتها في الأزمنة الأولى من العمر فرحت أعيد مشاهدة (الخشخاش)..(هجرة القلوب إلى القلوب)..(بنت المحطة).. (أيام شامية)..(نهاية رجل شجاع)..(

لك يا شام).. (الفصول الأربعة).. (رسائل شفهية).. (أحلام المدينة).. (صعود المطر).. (مذكرات رجل فاشل)..(ليالي ابن آوى).. (نسيم الروح).. (القلعة الخامسة) (آه يا بحر)..(صوت الفضاء الرنان)، (كاسك يا وطن)، (غربة) (ضيعة تشرين).. إلخ

طبعاً حين لم يكن يسعفني الإنتاج السوري من الدراما والسينما والمسرح كنت ألجأ إلى الأفلام العالمية وأعتقد أنني شاهدت خلال هذه المرحلة أكثر من ألفِ فيلم وثمة أفلام كالـ (العراب).. (سينما باراديسو).. (عطر امرأة).. (الخلاص من شوشانيك).. (فورست غامب).. (أساطير الخريف).. (مالينا).. إلخ.. إلخ.. شاهدت الواحد منها أكثر من عشرين مرة.

نكوصٌ حقيقي.. هروب من الواقع إلى مكانٍ آخر.. إلى زمن بعيد..

هل جعلني ذلك سعيداً؟

بالتأكيد لا..

كان يُخدِّرني قليلاً لأنَّ السعادةَ سرابٌ جميلٌ نلهثُ خلفهُ حتّى النهاية...

هذا ما حدث وصدقاً لست أدري لماذا أكتب قصة كهذي لكن..

ربما قد تكونُ قصة البعض منكم أيضاً..

حارسُ المقبرة

بينما راحت أنجلينا تداعبني بغنجٍ وأنا مستلقٍ على فراشها رحتُ أتأملُ شاهدة القبرِ المجاورِ وأقرأ:

.هنا يرقدُ المغفورُ له بإذنِ الله الفنان القدير براد بيت.

قلتُ بهمسٍ كي لا تسمعني هذه اللبوة المفترسة:

.لا تزعل يا صديقي براد ولا تعتبر الأمرَ شخصياً، على ما يبدو، هي لا تفتقدكَ كثيراً.

وبينما راحت أنجلينا تفعلُ بلسانها ما لا أستطيعُ سردهُ حاولتُ أن أبرَّر له:

.صدّقني هي من استدرجتني إلى غرفةِ نومكما..

عندما استفسرتُ عن سببٍ وجيهٍ لوجودِ لحدكَ قربَ سريرها قالت:

.هذا ليسَ من شأنك.

سامحني أرجوك.

رويداً رويداً زادت بطلة (الخطيئة الأصلية) من حماستها وبدأت تنوعُ أساليبها في مداعبتي لكن عندما أصبح الوضعُ في مرحلة الغليان، استيقظتُ منتشياً.

في قلبِ عتمةٍ لا يشوبها سوى وميضٌ خافتٌ يعبرُ كلصٍ من نافذة الغرفة وجدتُ نفسي على سريرٍ آخر.

إنه سريري أنا، والمرأة التي بجانبي لم تكن أنجلينا بل صديقتي المُطلّقة دلال.

على ما يبدو أيقظها صراخي فقالت بدلال:

.حبيبي.. كنتَ تحلمُ بي!

أجبتُ وأنا بالكادِ أدركُ ما حولي:

.بالطبعِ حبيبتي جوجي..

ما هي إلا ثوانٍ معدودات حتى ذهبت السكرةُ وأتت الفكرة.

أضاءت دلال المصباحَ ثمّ فنجرت عينيها كمن مسّها الشيطان.

إثرَ دقيقةٍ مرعبةٍ من الصمت سألت بانفعال:

.جوجي!

بدأ عقلي يعمل بسرعةٍ قصوى لإيجادِ مخرجٍ من هذا الكابوسِ الحقيقي الذي تلا حلماً جميلاً لكن..عبثاً..

راحت صاحبتي تذرعُ الغرفة جيئة وذهاباً كلبوةٍ مسجونة..

صدقَ من قال:

.لا تضاجع أنجلينا بين القبورِ كي لا تستيقظ على استجواباتٍ موحشة.

فجأة..

أطفأت دلال الضوءَ واقتربت مني حتى لامسَ جسدها جسدي..

طلبت أن أكونَ صادقاً وأروي لها تفاصيل الحلم كي تغفر لي.

.الحقيقة، ولا شيء سوى الحقيقة.

عندما فرغتُ من روايةِ الحلمِ على مسمعيها بالتفصيل المملِ اعترتها رغبة عارمة لفعلِ ما كانت تفعلهُ أنجلينا في المنام.

هكذا راح لسانُ دلال يصنع المعجزات..

حين زادت من حماستها وأصبح الوضعُ في مرحلة الغليان، استيقظتُ منتشياً.

في قلبِ عتمةٍ حالكةٍ كنتُ وحدي على سريرٍ في غرفة نائية.

إنها غرفتي ومقرّ عملي قربَ مقبرةِ القريةِ حيث أمضي الأيامَ كحارسٍ لها منذ تسع سنوات.

نهضتُ بمعجزةٍ ثمَّ صنعتُ لنفسي فنجاناً من القهوةِ شربته مع سيجارةٍ تحتَ شجرة الحورِ المجاورة.

.عمتم مساءً أيّها الراقدونَ تحتَ الترابِ.. وفوقه.

سأروي لكم ما جرى معي في عالمِ آخر ولا أريدُ أن يقاطعني أحد:

.بينما راحت أنجلينا....

الباخرة الأخيرة قرب شاطئ الخضر

قالَ صاحبي مُتوجِّسَاً:

.ستتجمَّدُ خِصيانُنَا.

قلتُ:

.لا تجزَع.. بالحركةِ المُستمرةِ لن ندعها تفعل.

كانَ السيرفيسُ الذي أقلّنا إلى مفرقِ شاطئِ الخضرِ في اللاذقيةِ قد غابَ عن أعيُنِنَا.

شمسُ شباط توحِي بدفءٍ مُزيّف.

أمامَنا، امتدَّ شارعٌ أسفلتي، عن يمينهِ حواكيرٌ ومنزلٌ شبهُ مهجور، وعن يسارهِ ثمّة حدائقُ المدينةِ الرياضيةِ غير المعلقةِ وكانت، خاويةً عن بكرةِ أبيها.

أخرجتُ من حقيبتي علبةَ الحمراءِ الطويلةِ ثمَّ اشعلتُ سيجارة.

من وراءِ التلَّةِ الترابيةِ التي انتصبت فوقها بعضُ صواريخِ الدفاعِ الجوي، كانَ البحرُ يُومِي بابتسامةٍ ساحرة.

سألَ صاحبي بينما نتجهُ إلى اليمين في طريقٍ تُرابي ضيِّقٍ والبحرِ غدا أمَامنا:

.ميماس أم ريان؟

كانَ التبغُ يتسرَّبُ مع الهواءِ البارِدِ إلى أماكنَ قصيةٍ في الروحِ وكما أحسبُ الآن بعدَ مضي خمسةٍ وعشرين عاماً، كانَ التبغُ يحقِّقُ لي توازناً خفيًّاً أنا شخصياً لا أفهمُ كنهَهُ...

أجبتُ:

.ميماس، مز.

.وأنا أحضرتهُ من ذاتِ الصنف، ألذ.

بعدَ أن اتجهنا يساراً كانَ مقام الخضرِ ذي الجدرانِ المطليّةِ بالكلسِ الأبيضِ والرطوبةِ قد أصبحَ جليًّاً.

على جانبي الطريقِ الترابي الذي ازدادَ ضيقاً، انتشرت أوراقُ القصبِ بكثافةٍ مُتدرِّجة..

من بعيدٍ بين الأمواج، لاحت بقايا باخرة.

حينَ أصبحنا فوقَ صخورِ الشاطئِ المُتاخمة للمقام، وضعنا حقائبنا ثم بدأنا بخلعِ الثياب.

عندما يذهبُ الناسُ إلى البحرِ صيفاً، لا يكونُ خلعُ الملابسِ حدثاً يستحقُّ الذكر.

في الشتاء، الأمر مختلف.

أنت مضطَّرٌ لخلعِ الحذاءِ والجواربِ والبنطالِ والجاكيت وكنزة الصوفِ والقميصِ الداخلي..

في كلامٍ آخر، عليكَ أن تنجزَ عملاً.

قالَ صاحبي مُتوجِّسَاَ:

.ستتجمَّدُ خِصياننا.

قلتُ:

.لا تجزع.. بالحركةِ المُستمرةِ لن ندعها تفعل.

قبالةَ شاطئِ الخضر، ولسنين طويلة، كانت ترقدُ في سلام، باخرة.

أجزاءٌ قليلةٌ منها بقيت فوق سطح الماء.

فتياناً كنّا وكانَ الكونُ ملكنا.

انطلقنا صوبها بعزمٍ وصلابةٍ وقوةٍ وإرادة، لكن، قبل أن نصل بأمتار قليلة، لمحنا جسداً هلامياً عملاقاً قربَ بوابتها وكأنهُ يحرسها فضغطنا المكابح.

قلتُ بانفعالٍ أحاولُ عبثاً سترَ خوفي وراءه:

.ألديكَ فكرة عن ماهية هذا الشيء؟

بلعَ صديقي ريقهُ الممزوجَ بالملحِ وأجاب بالنفي.

ثمّ ما كانَ منه إلا أن سألني بانفعالٍ حاولَ سترَ خوفه وراءه:

.برأيكَ ما يكون!

بلعتُ ريقي الممزوج بالملحِ وأجبتُ بعدمِ المعرفة.

ولأنَّ صديقي لم يكن أوديسيوس..

ولأنني لم أكن آخيل..

وضعنا أقدامنا في مؤخراتنا وعدنا بسرعةِ الطوربيدِ إلى الشاطئ .

بعد ساعتين كاملتين تغلَّبنا على خوفنا واتجهنا إلى هناك.

طبعاً لم نجد شيئاً..

وما كانَ ذلك الجسدُ العملاقُ باعتقادي إلا واحداً من قناديلِ البحرِ التائهةِ بسببِ تيارٍ أو عاصفةٍ ما .

بهدوءٍ تقدمنا باتّجاهِ السلّمِ الحديدي الذي يقودُ إلى سطحِ الغرفةِ الوحيدةِ المتبقية.

لم تكن غرفةً بالمعنى الحرفي..

كانت بقايا غرفة.. القبطان التي التهمها الصدأ واكتست بِفعلِ الشمسِ والملحِ والرياحِ البحرية طابعاً روائياً مدهشاً .

من هناك كنَّا نعودُ ونقفزُ في الماءِ على رؤوسنا لمراتٍ ومرات..

إثر ذلك نستسلمُ للاستلقاءِ تحتَ أشعةِ الشمسِ وكأننا فوقَ جزيرةٍ نائية، نطالعُ الشاطئ البعيد ونغني أحياناً..

" يا ماريا يا مسوسحة القبطان والبحرية..

يا مسوسحة القبطان.."

.لا أجمل من نساءِ البحر..

أقولُ لصديقي لكنهُ لا يقول شيئاً مكتفياً بمراقبة بعضِ النوارس حولنا.

حينَ نعودُ أدراجنا كنّا نسمعُ للموجِ وهو يضربُ حوافَ الجسدِ الهرمِ للباخرةِ نواحاً حزيناً.

قلة من كانوا يزورونَ تلك السفينةِ ويصلونها العشقَ كما كنا نفعل ..

لم أعد أذكرُ على وجهِ الدقةِ متى حلّتِ الكارثة..

ذاتَ يوم، بدأوا بانتزاعِ الباخرةِ باستخدامِ سلاسل فولاذية عملاقة.

بعضهم قال إن رجلَ أعمالٍ ثري اشترى حديدها ليعيدَ تصنيعهُ بثمنٍ بخس .

بعضهم قالَ إن الحكومة الحقيرة هي من فعلت ذلك.

هكذا كنا نراقبُ رفيقتنا العتيقة تختفي رويداً رويداً حتى غدت بعد عام كاملٍ مُجردَ شبح يلوحُ في الأفق..

كلما زرتُ ذلك المكان.. تمزّق قلبي من ألمِ الذكريات وعذوبتها..

أشاهدُ نفسي فتيًّاً مُحَلِّقَاً بين البحرِ وغرفةِ القبطانِ قبلَ أن ألجَ الماء..

ثمّ أعودُ لأُخلَقَ من جديد ..

كانت أياماً تُعاش.

أجملُ بنتٍ في الحي

كانت أجملَ بنتٍ في الحي، كانت تعرفُ ذلك.

عيونُ الناسِ أخبرتها عندَ كلِّ طلّةٍ لها في الحارةِ، في المدرسةِ، في السوقِ، في الحديقة...

الشبابُ أحبّوها، الرجالُ تمنّوها، الفتياتُ غِرنَ وكرهنَها..

أمّا ذلك العجوزُ السّكيرُ صاحبُ البقاليةِ عندَ رأسِ الشارعِ فقد أخبرني يوماً أنَّ ما من سببٍ يجعلهُ يجلسُ أمامَ متجرهِ صبحاً ومساءً إلا رؤيتها حينَ تمرُّ ليستنشقَ العطرَ الذي يضوعُ من جسدها في تفتّحه الأوّل.

قالَ مرةً :

.الأنثى في أوجِ فتنتها تحيي العظامَ وهي رميم..

.على حدّ علمي.. هذه مهنة الله.

قلتُ مازحاً وأنا أشعلُ سيجارة من التبغِ البلدي ضيّفني إيّاها بعدَ أن لفّها بيدٍ واحدة..

.علمكَ ناقصٌ يا فتى..المرأة الحكاية تفعلُ أيضاً..

قد يحظى الرجلُ خلالَ حياتهِ كلها بامرأةٍ واحدةٍ كهذه.. وقد لا يحظى.

هذه الفتاةُ السّاحرة كلَّما رأيتها أشعرُ بشيءٍ يتفتحُ داخلَ عروقي.

عندما أستنشقُ شذى أنوثتها تخضرُّ فروعي اليابسة..

أنتَ الآن ما زلت شاباً ويلزمكَ عمرٌ كعمري كي تفهم.

تذكّرتُ حديثي مع العجوزِ حينَ علمتُ أن الفتاة غدت بسببِ التفجير الذي هزّ المدينة صبيحة ذلك اليوم أربعة أجزاءٍ متفحِّمة .

. مواقفُ الحافلاتِ المُزدحمة بالناسِ مكانٌ مثالي لمن يعشقونَ التفجيرات طمعاً بالجنة.

عندما زرتُ الحي تعمّدتُ المرورَ أمامَ بقاليّة العجوز فرأيتها مقفلة..

سألتُ عنه وعلمتُ من ابنتهِ أنه مات.

توقّعتُ أن يكونَ قضى بالتفجيرِ لكنها قالت:

أوصانا أن نكتبَ على رخامةِ قبره:

.قتلهُ الشوق.

امرأة تصغي إلى حديثٍ عادي

بدأ كلُّ ذلك، حينَ تأثَّرتُ لأوَّلِ مرَّةٍ في الصِّبا بالمسلسلاتِ والأفلامِ التي تتحدَّثُ عن القراصنة.

هكذا، أردتُ أن أصبحَ قرصاناً..

كنتُ أقصُّ عليها مُوجزاً مُتواضِعَاً عن تاريخِ أحلامِي وهيَ تضعُ باستغراقٍ عجائبي (المانيكور) فوقَ أصابعِ قدميها.

أشعلتُ سيجارةً وتابعت:

.كنتُ أتخيلُ نفسي بربطةٍ مَعصوبةٍ على الرأسِ واقفاً في مقدمةِ السفينةِ الشراعيةِ والمدى الأزرقُ الرحيبُ كلّهُ.. مُلكِي.

.للحياةِ طريقتها في تبخيرِ الأحلام..

مَع مرورِ الأيَّامِ أدركتُ أنَّ جزيرة الكنزِ أبعدُ مما تخيّلت، أمّا السفنُ الشراعية فما عاد لها وجودٌ سوى في المَتاحفِ البحرية، وبالنسبةِ للقراصنة في هذا الزمن، باتوا مُقرفين يرتدون بزّاتٍ رسميّةٍ وربطات عنق.

من نافذة الغرفةِ تسلَّلَ بعضُ الضوءِ عقبَ ساعةٍ ماطرةٍ فأصبحَ لونُ دخانِ السيجارة المُتعرّجِ صعوداً.. أزرق. المرأة بَدت وهي تُمرّرُ الفرشاةَ الصغيرةَ على إصبعِ قدمِها اليُسرى الصغير.. أشهَى.

.بَعدَ فترةٍ منَ الزَّمنِ شاهدتُ محمود عبد العزيز يُمثّلُ دورَ رأفت الهجّان.

باتَ من الضروري أن أصبحَ جاسوساً كي أخدمَ بلادي.

رحتُ أتخيّلُ نفسي أنيقاً، وسيماً، أضاجعُ نساءَ الطبقةِ المخمليةِ الإسرائيليةِ اللعينة وفي ذاتِ الوقتِ أنقلُ المعلوماتِ الضرورية لمصلحةِ الوطنِ والمواطن ممَّا يجعلُ نكاحِي لنساءِ الأعداءِ نضالاً بحدِّ ذاتهِ وفتحَاً عظيماً.

.كما صرتِ تعرفينَ.. للحياةِ طريقتها في تبخيرِ الأحلامِ.

مع مرورِ الزمن، اكتشفتُ أنَّني لستُ أشقر ولا وسيماً بما فيهِ الكفايةِ كي أصبحَ جاسوساً مثلَ رأفت الهجان أمّا الأناقةُ فبيني وبينها ما صنعَ الحدّاد.

حينها كانَ لا بدَّ أن أصبحَ عظيماً مثلَ أحدهم.. لكن، من يا ترى!

حينَ أنهت صديقتي وضعَ المانيكور على أظافرِ قدمها اليسرى، قامَت بتعديلٍ خفيفٍ على نتفِ القطنِ المُوزَّعةِ بينَ الأصابعِ ثمّ راحت تنفخُ برويّةٍ كي يجفَّ الطلاءُ الأحمرُ بسرعة.

إثرَ دقيقةٍ أو أقلّ.. بدأت بالثانية.

شعرتُ بحاجةٍ إلى بعضِ النبيذ.

كانَ في الزجاجةِ بقايا من أمسٍ العاصف، كبعتها دفعةً واحدة وأشعلتُ سيجارة ثانية ثمّ أردفت:

. في مراهقتي، قرأتُ وسمعتُ كثيراً عن الإسكندرِ ذي القرنين، فاتحِ العالم بأسره وباتَ من الواجبِ أن أفتحَ العالم.

كلُّ ما كنتُ بحاجةٍ إليه:

. والدٌ امبراطور مثل فيليب، جيشٌ عظيمٌ مثل جيشه، قاتلٌ محترف كي يغرسَ خنجراً في كرشه، وعالمٌ لا وجودَ فيه للأمريكيتين و.. حنكة عسكرية.

حين قلتُ لأبي:

. سأصبحُ ملكاً للكونِ كالإسكندر وعليكَ أن تكونَ إمبراطوراً كفيليب حتى تورثني جيشكَ الجرّار، نظرَ إليَّ باشمئزازٍ وقال..

. أيّ ذنبٍ اقترفتهُ حتى أرسلَ لي الله وغداً مثلك!

هكذا أيتها الحلوة.. تخلَّيتُ عن فكرةِ فتحِ العالم.

من يومها وهو يفتحني.

أنهت وضعَ المانيكور على أظافرِ قدمها اليمنى، وكما فعلت قبلَ قليل، قامَت بتعديلٍ خفيفٍ على نتفِ القطنِ المُوزَّعةِ بينَ الأصابعِ ثمّ راحت تنفخُ برويّةٍ كي يجفَّ الطلاءُ الأحمر..

اختفى حزامُ الضوءِ خلفَ غيمٍ رمادي داكن وعاودَ المطرُ إغواءَهُ القديم.

من على الطاولةِ المجاورة لنافذة الغرفةِ حيث كنتُ جالساً أدخّن، أخذتُ هاتفي المحمول وبحثت في مقاطعِ الموسيقى المحفوظة عن كونشيرتو البيانو للرفيقِ أماديوس موزارت.

لم يَطُل بَحثِي وبعدَ أن ضغطتُ على بدءِ التشغيلِ أشعلتُ سيجارةً جديدة.

كانت ساقاها شبهُ متلاصقتين حين قامت بِرفعِهِمَا رويداً رويداً مُستديرَة باتّجاهِ حافةِ السرير.

بهدوءٍ سبق العاصفة، أنزلتهما وبقيت جالسةً على ذي الحالِ فكانَ ظهرها باتجاهي.

في مرآة الخزانة استطعتُ أن أرى صورة نصفيةً للقسمِ الأيسرِ من جسدها العاري وهي مشغولة بوضعِ المانيكورِ على أصابعِ اليدين.

شجرةُ الإيكدينا الوحيدة في الحديقةِ المتواضعة أمامَ الغرفة كانت تميلُ مع عصفِ الرياحِ الذي اشتدَّ واستمرَ هطولُ المطر..

كان مطراً غزيراً وجميلاً يليقُ بيومٍ سوريٍّ عتيق.

."دارت الأيّامُ ومرّت الأيّام" ثمَّ شاهدتُ مارلون براندو يُمسِّدُ بيديهِ على رأس تلك القطة ويداعبها فقفزتُ عن الأريكةِ مُوقعاً منفضة الرمادِ وصرختُ:

.وجدتها، سأكونُ العراب.

كلُّ ما عليَّ فعله هو أن أقتلَ الناسَ الذينَ لايحبونني.

بعدَ أن هدأ انفعالي وفكرتُ قليلاً اكتشفتُ أنني أجبنُ من ذلك بكثير وللأسف، لن أصبحَ العرَّابَ أبداً.

حينَ انتهت من طلاءِ أظافرِ يديها نَهضت عن طرفِ السريرِ وتوجّهت إلى الحمّامِ فارتجّت مؤخِّرتُها نتيجةِ لفعلِ النهوضِ والمشي وحينَ أصبحت في الداخلِ أغلقت الباب.

.يا لها من عاصفة..

قلتُ ثمَّ سحبتُ من سيجارتي نفساً عميقاً وأضفت:

.في تلكَ المرحلةِ من عمري سيطرَت على عقلي فكرةُ العَظَمَة وكانَ لا بدَّ أن أصبحَ عظيماً كأحدهم.

حينَ شاهدتُ ذات يوم فيلماً لجوني ديب يمثلُ فيه شخصية الدون خوان دي ماركو، ابتسمتُ بمكر.

كلُّ ما كانَ عليَّ فعله هو أن أضاجعَ بطريقة ما، ألفَ امرأةٍ وبعدها ستتناقلُ البشرية أخبار مغامراتي....

فجأةً..

فتحت صديقتي بابَ الحمَّامِ بعنفٍ واندفعت صوبي.

حينَ أصبحت قربَ الطاولةِ تماماً أخذت من يدي ما تبقى من السيجارةِ ثم أسندت كوعَ يدها اليمنى على ظهرِ أصابع اليدِ اليسرى ومالت بخصرها قليلاً وبعدَ أن عبّت التبغَ قالت:

.بماذا تفضّلت حبيبي!

كانَت مَلامِحُها تدلّ على الغضبِ لكن، رغمَ ذلك، بدت أجملَ من أيّ وقتٍ مضى.

قلتُ ما أن نهضتُ عن الكرسي واقتربتُ منها حتى صرتُ ملاصقاً لها:

.لوهلةٍ اعتقدتُ أنني أحَدِّثُ نفسي في مونولوجٍ ماطر.

لا عليكِ، كنتُ أقولُ..

.بعدَ أن عرفتك، صرفتُ النظر عن كل ما فات.

وأدركت كم كانَ أوسكار وايلد عظيماً حين قال..

.(كُن نَفسك، بقيّة الأدوارِ تمَّ توزيعها).

اختلافُ لهجات

قبلَ أن أذهبَ إلى المنطقةِ الصناعيةِ لصيانةِ سيارتي المتواضعة، قرّرتُ أن أستعينَ بأحدِ معارفي من مواطني هذهِ البلاد.

من يعملونَ في تصليحِ السيارات، لا يجرؤونَ على خِداعِهم كما يمكنُ أن يفعلوا معنا نحنُ الوافدين..

اتصلتُ برجلٍ ستيني ممّن يعملونَ في المؤسسةِ التي أعملُ فيها وقلت:

.اسمع، أريدُ خدمة..

.(أبشر)..

قالَ بلهجتهِ اللطيفة وحينَ رويتُ التفاصيلَ أضاف:

.سأنتظركَ قربَ بقاليةِ كراتشي عند السابعة مساء..

كنتُ على الموعدِ وكانَ هو هناك.

شرحَ صديقي لمُعلّمِ الورشة تفاصيلَ العطل. حينَ اتفقنا على الأجرِ بدأت أعمال الصيانة..

شكرتُ الرجلَ على تكبدهِ عناءَ المجيءِ وقلتُ:

.بإمكانكَ الذهاب فلستَ مُضطراً للانتظارِ معي.

بشهامةٍ وأدب، أعربَ عن رغبتهِ في البقاءِ ريثما يتمّ الأمر.

اتخذنا من أحد الجدرانِ متّكأً لظهرينا ثمّ أخرجتُ علبة التبغ من جيبِ قميصي.

حين عرضتُ سيجارة عليه، رمقها باستغراب مستفسراً إن كانت سيجارتي ملغومة بالحشيش.

طمأنتهُ وأخبرتهُ أنها مُجرّد سيجارة من التبغ العربي أحضرهُ معي من سوريا بعد الإجازة.

حينها قال:

.رغمَ انقطاعي عن التدخينِ إلا أنّني سأجرّبها..

ثمَّ أردف..

.الحمدلله، كلّ ما كنتُ مدمناً عليه أيَّام الشبابِ استطعتُ أن أتخلصَ منه..

(التدخين، المُقامرة، شربُ الأقواط..)

كنتُ أسحبُ من سيجارتي نفساً عميقاً لم تترك كلمة أقواط أمامي مفراً من الاختناقِ به.

سعلتُ بحدّة ثمّ قلت:

.هل سمعتكَ جيداً! وهل قلتَ إنكَ كنتَ مُدمناً على شربِ الأقواط؟

.أجل هذا ما قلته. لمَ الاستغراب! أرجوكَ لا تقل إنّكَ لم تشرب أقواطاً من قبل..

كنتُ قبلَ هذا السؤالِ واحداً مِمَّن يعتبرون أنفسهم مُخضرمين في معاشرةِ النساء.

بعده، أيقنتُ أنني مجرد طفلٍ بريء.

لم أشأ أن أبدو ساذجاً فقلتُ وأنا أرسمُ ابتسامة بلهاء:

.أكيد شربت، لكن وللأمانة، لم يخطر على بالي يوماً أن أصفَ الأمرَ بهذهِ السوريالية.

ضحكَ الرجلُ فبانت أسنانهُ الصفراءُ بطريقةٍ جعلتهُ يبدو مخيفاً وقال:

.كنتُ أخبِّئُ الأقواطَ في ثلاجةٍ ضمن قبو المنزلِ كي لا يراني أحد.

كلّ يومٍ أشربُ ثلاثة أو أربعة أقواط حتى أشعرَ بالارتواء.

بصراحة، نسيتُ أمرَ السيارةِ والمالَ الذي سيكلِّفني تصليحها وعصفَ بي غضبٌ حانق.

هذا الرجلُ الذي يبدو كبقايا رجل كان لا يكتفي في اليوم الواحدِ بثلاثةِ أقواط..

رحتُ أفكّر:

.من الآن وصاعداً، وقبلَ أن أتحدثَ عن النساء، يجبُ أن أضعَ قوطاً في فمي وأخرس..

ومن الثلاجة!!!

لا غرابة أنّهم وصلوا هذهِ المرحلة المُتقدِّمة من التطورِ العمراني والسياحي.

شعبٌ يحتفظُ بالأقواطِ في الثلاجة يليقُ به ذلك..

أشعلتُ سيجارة جديدة بحسرةٍ وسألت:

.عن أيّ ثلاجة تتحدث؟ وكيفَ يمكنُ للمرءِ ان يحتفظَ بالأقواطِ فيها؟

ابتسمَ ابتسامة ماكرة وقال بثقة:

.(إييه يا خوي).. ما من شعورٍ في العالمِ يمنحكَ اللّذة التي تمنحكَ إيّاها الأقواطُ الباردة.

وأنت، ألا تُفضلها كذلك؟

أصابني السؤال بالارتباكِ والخوف فأنا حقاً لم أتخيل وجودَ رجلٍ في العالم يُفضّلُ الأقواطَ باردة فقلت:

.والله يا صديقي إن تجربتي متواضعة جداً قياساً بتجربتك، لكنني أفضِّلها دافئة.

ضحكَ بسخريةٍ وقال:

.غلطان..

يبدو أنّك لست شريباً جيداً للأقواط، لذّتها تكمنُ في برودتها بينما تسيلُ فوقها قطراتٌ كالندى.

لا أنكرُ أنّ الحديثَ أصابني بتوترٍ مربك وأردتُ أن أنهيه فسألته:

-كيفَ تخلّصت من إدمانك هذا يا طيب؟

أجابَ مُتنهداً:

.بفضلِ زوجتي...

قلتُ مواسياً:

.لا شكَّ أنّ أصوات صاحباتِ الأقواط وصلت إلى مسامعها و..

قاطعني مستغرباً:

-أصواتُ من؟

مُستغرباً استغرابه أجبت:

.أصواتُ العاهرات اللواتي كنتُ تفعلُ بأقواطهنّ ما يستوجبُ الصراخ.

بَدَت على الرجلِ العجوزُ ملامحُ عدمِ الفهم وقالَ برويّة:

.صديقي، الأمرُ وما فيه..

كانت زوجتي تنظفُ القبو ذات يوم، وكنتُ قد نسيتُ مفتاحَ الثلاجة في قفلها.

حين فتحت باب الثلاجة، رأت الأقواطَ بأمّ عينها.

لم تتردد سيدة قلبي وفؤادي فكسرتها كلها، ثم خيّرتني مساءً بينَ أن ينتهي زواجنا أو التوقف عن شربها..

ارتسمت فوقَ رأسي ألفُ إشارةِ تعجّب.

أنا حتى تلك اللحظة، كنتُ أعتقد أن موضوعَ الثلاجة مجازي يريدُ من خلاله العجوز التلميح إلى خبرته في نكاحِ النساء.

الجديّة التي وصفَ بها حادثة كسر الأقواط أكدت وجودها بالفعل فصرختُ عالياً:

.يا ابن السماء.. كيفَ كسرت الأقواط؟ وهل الأقواط تُكسر؟

اندهشَ الرجلُ من انفعالي وراح يصرخ..

.أقواطُ خمر! لماذا تستغربُ كسرها؟ هي مصنوعة من الزجاج والطبيعي أن تُكسر إن رميتها أرضاً...

.هكذا إذاً..

قلتُ غير مُصدّق منعطفات الحديث ثمّ أضفت:

.أفهمُ من كلامكَ أنك كنت مُدمناً على الخمر وكلمة أقواط بلهجتك تعني..

(زُجاجات)!

.وماذا تعني بلهجتكَ أنت؟

ابتسمتُ وأنا أشعلُ سيجارة ثم قلت:

.اتكل على الله واذهب إلى منزلك. ما فعلتهُ اليوم كاف وأكثر.

قبل أن تختفي ملامحه خلف ستار العتم قلت:

إياكَ أن تعاودَ إدمانكَ هذا يا صديقي..

شربُ الأقواط بكثرة يضرّ الكبد.

عندما وقفتُ في الشارعِ حافياً

.جميعُ السائقين في مهمّاتِ عمل، عليكَ الذهاب بسيارتكَ لو سمحت.

.لكنّها قديمة جداً كما تعلم، وقيادتها إلى شارع الخيلِ في دبي مغامرة.

مع ابتسامةٍ وغمزةٍ ماكرة، قالَ المدير:

.أعرفكَ تحبُّ المغامرات.

.مع النساءِ أستاذ، فقط مع النساء.

أنتَ تريد تقريراً صحافياً عن فعاليةٍ لا أثر لكعبٍ عالٍ فيها.

ضحكَ العجوزُ كطفلٍ ثمّ أرسلَ خارطة المكانِ عبرَ تطبيق (الواتس آب) إلى هاتفي.

ما أن خرجتُ من المكتبِ وأصبحتُ داخل السيارة حتى أشعلتُ سيجارة.

من حسن حظّي أن شارعَ الاتحاد الواصل بين إمارتي الشارقة ودبي كان مفتوحاً عن آخره ولا أثر لأيّ ازدحام قد يسبّبُ مشاكل في حرارةِ السيارة.

كذا الحالُ كانَ مع باقي الجسور والشوارعِ العريضة التي مررت فيها.

.لماذا لا توجدُ في سوريا شوارع مُعبدة نظيفة كهذه!

ويا ترى، هل الإسفلتُ الرديءُ والحفرُ الخطيرة والفوضى وغياب القانون والدوس على أبسطِ حقوقِ البشر من متطلبات الصمود والممانعة والتصدي؟

رحتُ أتساءل بحسرةٍ عن الشؤونِ ذاتِ الشجون حتى وصلتُ المكانَ وكانَ في أحد الأبراج الفخمة.

ركنتُ السيارة وما أن خطوتُ أول خطوة حتى شعرتُ بالألمِ المعتاد في قدمي.

.اللعنة، لم أصبح بعد في الأربعين وهذه الآلام التي تعتريني بين الحين والحين لا ترحلُ من تلقاء نفسها.

فُتِحت البوابةُ الإلكترونية ما أن غدوتُ قربها وولجتُ ثم انعطفتُ يميناً وكانت أمّي في المطبخ تُعدُّ الطعام.

قالت:

.نفد الملح. اذهب إلى دكان (غادة) وأحضرهُ بسرعة.

.أين النقود؟

.قل لها أن تقيّدَ السعرَ على الدفتر.

حافياً خرجتُ من بيتنا المُستأجر في قرية بسنادا بمدينة اللاذقية وركضتُ صوب الدكان، حين نظرت ورائي لمحتُ أخي الصغير يتبعني فوقفتُ في منتصف الشارع وقلت:

.لا أريدكَ أن تلحق بي أينما ذهبتُ يا غليظ.

أطرقَ أخي رأسه وعادَ أدراجهُ بينما عاودت الركض.

رأيتُ وسيم وباقي الشلة يلعبونَ الكرة في الملعبِ الترابي الصغير المتاخم للدكانِ وبدون تفكير شاركتهم اللعب ناسياً أمر الملح.

.ما أجملَ العيش بلا ألم.

ها أنا أركضُ حافياً وأركلُ الكرة بأصابعِ قدمي وأقفزُ كما لو كنتُ شبلاً دون إحساسٍ بالألمِ الساخر.

عندما رأتني والدتي ألعبُ دون أن أحضرَ ما أرسلتني من أجلهِ راحت تشتمني بأعلى صوتها في الحارة لكنها رغم ذلك تبتسم.

قالت وهي تقفل عائدة:

.لا تتأخر، الطعامُ أصبحَ جاهزاً.

.اللعنة..

أين هي تلك المشاكلُ الجميلة ومن حولها إلى كوابيس!

غطّى الغبارُ جسدي ممتزجاً مع العرق ونالني بعضُ التعبِ والجوع حين تحوَّلُ الضوءُ الذي ترسلهُ الشمسُ من الأفقِ إلى العقيقِ الداكن.

أزفَ أوانُ الرجوع.

صعدتُ الدرجات الثلاث التي كانت أمامَ الحديقة الصغيرة فاستقبلني شخصٌ هندي نحيل وقال بإنكليزية مُكسّرة:

.مرحباً سيدي، تفضّل.

أجريتُ بعضَ المقابلاتِ الصحفية ثم عدتُ أدراجي إلى المكتب.

ركنتُ السيارة في مكانها المُخصّص وحينَ خطوت أوّلَ خطوة عاودني الألمُ في القدم.

ألمٌ أشعرُ به بعد الاستيقاظِ مباشرة أو المشي إثرَ جلوسٍ طويل نسبياً ثم يتراجعُ طعنهُ مع الخطوات التالية.

توجّهت إلى مكتبي ببطءٍ وقرفٍ من التفكير وحين فتحتُ الباب كان الضبابُ مذهلاً.

صحيحٌ أن الشهرَ (آب) لكن قرية (باب جنة) المجاورة لمنطقة صلنفة الجبلية لا تعترفُ به ولسببٍ ما تحبُّ أن تغيظه.

ضبابٌ وبرد!

كانَ من شبهِ المستحيل أن أرى الحواكير أمامي لكن الأمرَ لم يستغرق سوى ربع ساعة حتى بدأ الرذاذ بالطرقِ على بوابة صديقته الدنيا بهدوءٍ كما لو كان يخشى أن يسمعه أحد.

وقفت على الشرفة مرتدياً معطفاً جلدياً ثم أشعلتُ سيجارة واتخذت القرار بالمشي.

حين وصلتُ إلى نبع المكزون نزلتُ بضع درجات كي أشرب.

قال المدير:

.كيف كانت الفعاليّة؟

.مُملة كما توقعتها.. أيّ مكانٍ لا نساءَ فيه، مكانٌ مُضجر.

.ضحكَ صديقي العجوز ثم أردف:

.على فكرة لن ننشر اليوم، بإمكانكَ إعداد التقرير دون استعجال.

أومأت برأسي باسماً ثم واصلتُ العملَ كما أفعل منذ أربعة عشر عاماً..

يومها، قدمتُ إلى هذه البلاد بحثاً عن العمل، وحيداً، دون أن يتبعني أخي الصغير..

ولو أنه فعل.. لوقفت في الشارع حافياً وضممته ثمّ أوقفتُ الزمن.

سفينة شراعية صغيرة

.ما الذي يعرفهُ عشّاقُ هذا الزمنِ عن الشَّوقِ ولهفةِ اللقاء!

عن الرسائلِ الورقيةِ التي تفوحُ عطراً وانتظارِ رنّةِ الهاتفِ الأرضي بعد منتصفِ الليلِ بسيجارتين!!

عن المرورِ أمامَ منزلها مرةَ واثنتين وثلاثاً وأربعاً، دون التمكّن من رؤيةِ وجهِها لأنَّ والدها العبقري قرّرَ أن يشربَ الشاي على الشُّرفة.

ما الذي يعرفونهُ عن الصورِ الحقيقيّةِ التي تحتاجُ خططاً خمسيّة كي تُلتَقطَ قبلَ الطباعةِ والتحميضِ ثمَّ تُحفظُ في أحدِ بنوكِ سويسرا كي لا يراها إنسان.

في أقلّ من ربعِ قرن، لم تقفزِ البشرية نحو عالمٍ جديدٍ ومُختلفٍ بشكلٍ شبهِ كُلّي وحسب، بل حلّقت نحو عوالم كانَ من المستحيلِ تخيلها.

الرسائلُ أصبحت إلكترونيّة جامدة تسافرُ بسرعةِ الضوءِ دونَ أن يكونَ لديها الوقتُ لحملِ الشّوقِ فلا يصل. الصورُ غدت كذلكَ فلا تحتاجُ خططاً خمسية ولا لحظية وبكبسةِ زر تُلتَقطُ.. وتُحذَف.

حتّى الزمنُ الذي كان بحاجةٍ إلى آلةٍ عجيبةٍ في مخيلةِ الإنسان كي ينطلقَ بسرعة، لم يعد بحاجةٍ إليها، وأصبح هو نفسهُ آلةً تمضي بالناسِ كقطارٍ بلا مكابح.

لا أحد ينكرُ أنّ الأمورَ أصبحت أسهل، لكنّ بريقَ المشاعرِ في اعتقادي خبا كثيراً، كي لا أقول خبا وحسب.

ذاتَ عيدٍ عشّاق، قبلَ الهواتفِ الذكية والأدمغةِ الغبية، لم يكن مضى زمنٌ طويلٌ على علاقتي بتلك الصبيّة الممشوقةِ القدِّ وفي جيبي 85 ليرة هي آخر ما تبقى من مخصصاتي الشهرية لدراستي الجامعية والتي تبلغ ألفي ليرة سورية.

لم يستغرق الأمرُ مني سوى دقيقة تفكير.

ارتديتُ بنطالَ الجينز الذي كانَ أزرق قبل عامين، وكنزة الصوف التي حاكتها أمي بيديها الكريمتين كي تلازمني يفاعتي وشبابي، والمعطفَ الزيتي

الذي ربحتهُ من أخي بعد مراهنةٍ عليهِ في الشطرنج ثمّ خرجتُ من غرفتي متجهاً إلى مركز المدينة بحثاً عن هدية بـ 85 ليرة.

قبلَ أن ارتكبَ حماقة صعودِ السرفيس والتفريطِ بخمسِ ليرات، استدركتُ الأمرَ ومشيت..

من يدري، قد أحتاج تلك النقود دون نقصان قرش.

.للهِ درُّ الشبابِ كم يجعل الأشياءَ الجميلة تبدو.. أقرب.

بعد ساعةٍ وأربعِ سجائر، وصلت.

رحتُ أنقّبُ خلفَ واجهاتِ المحلّات عن هديةٍ يمكنني شراؤها بالمالِ الذي معي.

لا أنكر أن بحثي طال، وقبلَ أن أيأسَ رأيتها..

وقفتُ أمامَ زجاجِ المتجرِ الصغير المُتاخمِ للشارعِ الضيّق.

أشعلتُ سيجارة ثمّ رحتُ أتأملها.

كانت السفينة الشراعية الصغيرة تبحرُ في مخيلتي صوبَ شواطئ تبرق فوق رمالها الأصداف، وكان يمكنني وأنا أتأمل تلكَ القلوعَ البيضاء أن أستنشقَ رائحة البحرِ وأسمع هتافات النوارسَ التي تصاحبها في رحلتها الأبدية.

صاحبُ المتجرِ حين رآني واقفاً أمام الزجاجِ ومتردّداً نهضَ عن كرسيه ثمَّ قال بلطف:

.بماذا أخدمك!

كنتُ أعبُّ من سيجارتي بارتباكٍ خشيةَ أن يكونَ الثمنُ فوقَ استطاعتي فابتسمتُ ببلهٍ وسألتُ مشيراً بإصبعي نحوها:

.بكم؟

عادَ صاحبُ المتجرِ إلى الداخلِ وفتحَ باباً زجاجياً..

أخرجَ السفينة وراحَ ينظر إليها بشيءٍ من الإعجابِ ثمَّ قال:

.سأعطيكَ إيّاها مقابل 200 ليرة.

لم أخفِ دهشتي من سعرها لكنّني حزمتُ أمري وقلتُ بجدية:

.اسمعني جيداً يا طيب..

أنت لا تعرفني، ولا تهمّكَ هذه المعرفة أساساً لكن، دعني أخبرك أمراً:

.لا يمكنُ أن تتخيلَ مقدارَ كرهي لعمليةِ الشراءِ والبيعِ والنقاشِ في هذه الشؤون..

لو كان بحوزتي 200 ليرة لأعطيتكَ إيّاها دونَ جدالٍ ومضيت لكن هذا ما لدي...

أخرجتُ من جيبي المبلغَ كله ووضعتهُ في يديهِ ثم أردفت:

. صدقني إن قبلتهُ ووافقت على بيع السفينة سأعودُ مشياً إلى حارتنا ولكَ أن تقبلَ أو لا.

عدَّ الرجلُ النقودَ ولاحظَ الفرقَ الكبيرَ بين ما طلبهُ وما أعطيتهُ وبعد دقيقتين من الصمتِ غمزني قائلاً:

.أعتقدُ أنكَ لن تحتفظَ بها لنفسكَ، هيَ لك.

وضعها في حقيبة مناسبة ثم صافحته بحرارة وقفلتُ عائداً.

كانت مخيلتي أثناءَ طريق العودةِ تُحفّزني على الإسراعِ دون تعب.

.لله درُّ الشبابِ كم يجعل الأشياءَ الجميلة تبدو.. أقرب.

وصلتُ الغرفة كمن عادَ بجائزةٍ وكانَ موعدي معها مساء.

من كانَ يملكُ 85 ليرة حتى آخر الشهر، ولا يعرفُ ممن سيستدينُ إلى نهايته، لن يستطيعَ دعوة حبيبته إلى مطعم ولا إلى كافيتريا أو ما شابه..

أمثالي أيها الأصدقاء، وأعتقدُ بتواضعٍ أنهم ليسوا كثر، يدعون صاحباتهم إلى كرمِ الزيتون.

حتّى الانتظارُ تحتَ تلك الشجرة وطعم التبغِ كانَ أجمل.

أمّا اللقاءُ وكل شيءٍ في تلكَ الأمسية الهاربة من لعنةِ الزمن..

لكَ أن تتخيّل...

وبجدّ..

.ما الذي يعرفهُ عشّاقُ هذا الزمنِ عن الشوقِ واللهفة..

عن الرسائل الورقية المُعطّرة وانتظار رنة الهاتفِ الأرضي بعد منتصفِ الليل بسيجارتين!!

مخمورٌ في جامعةِ دمشق

الأحد 5 أيلول 2002

العاشرة صباحاً..

وكأنّهُ يومُ الحشرِ وسطَ سحابةٍ من دخانِ التبغِ في مقهى الصحافةِ بجامعةِ دمشق.

بعدَ ربعِ ساعةٍ من الانتظار، غادرَت عصبة من الطلبةِ المكان.

انتهزنا الفرصة وجلسنا بسرعة.

أشعلتُ سيجارة ثمّ سألتُ باسل عن أحوالِ زوجتهِ وابنتيه وظروفِ العمل فقال :

. الراتبُ الذي أتقاضاهُ بعد سبعِ سنين من الخدمةِ في المرفأ مهزلة حقيقية والعمرُ يمضي.

قريباً سأسافر بحثاً عن العملِ في الخارج.

هذه البلادُ ليست لنا.

شربنا ما تيسّرَ من القهوة..

تحدثنا عن الحربِ والقيادة الحكيمة الواعيّة والشعبِ السوري المُتدين، الخلوق، العظيم..

لستُ أدري كم كلّفنا ذلك الهراء، ربما ساعة أو أكثر بقليل..

استأذنتُ كي ألحقَ بمحاضرةِ الدكتورة فريال وإلا كانَ نصيبي الحرمان من تقديم الامتحان.

الحياة مليئة بالفانتازيا.

تخيّل.. العقوبة هي الحرمان من تقديمِ الامتحان!

ثمّ تأتيكَ الحياة بامتحاناتٍ تكونُ مستعداً لتقبيلِ مؤخرةٍ قذرةٍ كي تحرمكَ من مواجهتها.

كانَ نهاراً ربيعياً تزينهُ أصواتُ القذائفِ وراجمات الصواريخ وأعمدةُ الدخانِ المُتصاعدة من أرجاءِ عاصمة الجمهوريّة الإسلاميّة السوريّة.

أسرعتُ الخطو كي لا أتأخرَ عن موعدي وحينَ دخلتُ كانَ كرمُ الزيتون غارقاً في الظلام .

تحتَ أغصانِ الشجرة التي اعتدنا اللقاءَ في حِماها، كانت تلك الصبية تنتظر.

حينَ أصبحتُ ملاصقاً لها انهالت همساً بالشتائمِ لأنني تركتها وحدها، خمس دقائق.

استمعتُ إلى شتائمها بلذةٍ فلا أعذبَ من الكلماتِ النابية وهي تخرجُ من فمِ صبيةٍ حلوة.

سرقتُ منها قبلة أعجبتها كما استنتجت لاحقاً.

أخرجتُ علبة التبغ من جيبِ معطفي القديم وأشعلتُ سيجارة لها ثمّ واحدة لنفسي وقلت:

.سبحانَ من علّم نهديكِ أن يكونا أحنّ من الوطن.

من بقايا ضوءِ مصباحِ الشارعِ المُتاخمِ للكرم، كنتُ قادراً على رؤيةِ البريقِ في تينك العينين والألوان التي تنسكبُ من ابتسامتها.

ألوانٌ تخفِّفُ من وطأة الأسود والأبيض في فيلم حياتي القديم.

.صديقتاي في انتظاري عند رأس الشارع، لا أستطيعُ أن أتأخر أكثر.

(بحبك)

قالت الصبية ثمّ غابت في عتمةِ الضباب..

تريّثتُ لدقائق قبل أن أغادرَ بدوري .

حينَ أصبحتُ قربَ المصباحِ الخافتِ للشارع، نبتَ لي جانحان وحلقتُ في السماء.

كانت مجرد أمتار قليلة، سمعتُ إثرها وأنا أرتطمُ بالأرضِ صوتَ الانفجار ومن ثمّ حلّ سواد.

.نجوتَ بأعجوبة.

قالَ رفيقُ السلاح وهو يمسحُ ما تبقى من آثارِ الدماءِ عن وجهي.

.هل بقية الرفاقِ بخير؟

.استشهد عدنان وسامر ولؤي ونبراس وآخرون أمّا الجرحى فهم كثر.

.كيفَ تمكّن الهمجُ من إطلاقِ هكذا قذيفة؟

.الطائراتُ الأمريكية هي من فعلت وليس الهمج، رغم أن الفرقَ بينهم شبه معدوم.

.أريدُ سيجارة بسرعة.

نهضتُ بصعوبةٍ وطنينٌ جارفٌ يصمُّ أذني ثمّ مشيتُ ببطئٍ خلفَ آلية عسكريةٍ تحترق..

عندما خفّ الطنين، سمعتُ صوتها الخشن فتوقفت قبل أن أكملَ المشي:

.ما اسمك؟

.فلان

وضعت الدكتورة فريال نظارتها وأمسكت بيدها ورقة أمامها.

بعد ثوانٍ خطّت إشارةً بالقلمِ وقالت :

. هذه ثالث مرة تتأخر فيها عن المحاضرة عزيزي، أنتَ محرومٌ من تقديم الامتحان.

بدون إرادة، وكمخمورٍ إلى أقصى سماء، رحتُ أرقصُ مُختالاً من الفرحة...

دقيقتانِ من الليلك

كانت جميلةً كحلمٍ شهي..

لِعامين.. يَراها في طريقهِ إلى العملِ.. كلَّ صباح.

مثلَ أميرةٍ من زمنٍ آخر، تطلّ من شرفةِ المنزلِ الكبير، تشربُ القهوةَ بكسلٍ لذيذ ووجهها يغمرُ الدنيا بعطرِ الليلك.

كانت جميلةً أكثرَ ممَّا يَحتمل..

في النهايةِ - قالَ لنفسه -

-كيفَ لِمثلهَا أن تنتبهَ لِمثلي.

أنَا مُجرَّدُ موظّفٍ عادي وهيَ أكثرُ من مُجرَّدِ.. جنّة..

كَكُلِّ صباح، وبعدَ أن يجتازَ الشارع، يُشعلُ سيجارةً ثمَّ يغرقُ في الحزن.

ينتظرُ بقيَّةَ يومهِ صباحاً جديداً، يعيشُ فيه وهو يعبرُ قربَ المنزلِ.. دقيقتين من الليلك.

تراهُ مبتعداً في طريقِ الضباب..

ترجعُ إلى تنظيفِ المنزلِ الكبيرِ وتفكرُ بحنين ..

.كيفَ لمثلهِ أن ينتبهَ لمثلي ..

أنا مُجرَّدُ خادمةٍ متواضعة وهوَ أكثرُ من مُجرَّدِ.. جَنَّة.

مسبحُ الشعب

جميعُ العاملينَ في مسبحِ الشعبِ كانوا من الطائفةِ الأُخرى ما عَدانا، أيهم وأنا.

في الإجازةِ الصيفيةِ، بين الصفينِ (العاشر والحادي عشر) زارني أيهم في خيمتي التي كنتُ أقيمها على سطحِ بيتنا في قريةِ بسنادا بمدينة اللاذقية.

رحنا نشربُ المتّة ونستمعُ إلى أمّ كلثوم وعندما كنتُ أهمّ بإشعالِ سيجارةٍ جديدةٍ قال:

.سنعملُ في مسبحِ الشَّعب.

أخذتُ من السيجارة نفساً عميقاً ورحتُ أنشدُ مع الست:

"وكل شيء في الدنيا دي

وافق هواك أنا حبيتو"

.ألم تسمع

.بلى سمعت..

.قريبي يعرفُ المديرَ وقد أمَّنَ لنا عمَلاً هناك.

لم أكن سمعتُ في حياتي كلِّها عن مسبحٍ للشعبِ في مدينتي البحرية.

كنتُ أحفظُ تفاصيلَ شاطئِ الخضر، أعشقُ تضاريسَ شاطئِ الأبحاث، مشيتُ في طفولتي كثيراً على رمالِ نقابةِ المعلمين، عَمِلتُ في منتجعِ جول جمال ولديّ إطلالةٌ لا بأسَ بها على شاطئِ ابن هانئ..

حتى أنني شربتُ البيرة وقبَّلتُ فتاةً عندَ الكورنيش الجنوبي..

عشتُ شهوراً طوالاً على شاطئِ البدروسية ورأسِ البسيط..

أمَّا مسبحُ الشعب، لم أسمع به من قبل.

أشعلتُ سيجارة جديدة وقلت:

.ظننتكَ تمزح، أين موقعُ هذا المسبحِ السعيد؟

تأمَّلني صديقي بنظرةِ استعلاءٍ كونه يعرفُ منطقةً في اللاذقيةِ لا أعرفها وأجاب:

.في الطابيات.

هذا الكائنُ لا بدّ أصابهُ الجنون..

أسألهُ عن مكانٍ غيرِ معلومٍ فيجيبُ باسمِ مكانٍ مجهولٍ أكثر.

.أيَّة طابياتٍ وأية لغةٍ تتحدث؟

.المنطقة اسمها (الطابيات) ومسبحُ الشعب فيها. هل تعرفُ الكورنيش؟

.اللعنةُ عليكَ..

.اللعنة عليك أنت، كيف تعرفُ الكورنيش ولا تعرفُ الطابيات؟

.هكذا من الله.. قدَّرَ لي أن أعرفَ هذي ولا أعرف تلك.

.ما رأيكَ أن نتشاجرَ لأنّكَ لم تعرفِ المنطقة. في تمامِ السابعة صباحاً بعد غدٍ أنتظركَ عند ساحةِ الشيخ ضاهر، لا تتأخر.

كانتِ المرَّةِ الأولى التي أدخلُ فيها تلكَ المنطقة..

كما علمتُ من أيهم، جميعُ قاطنيها من الطائفة الأخرى.

أكثر من مرَّةٍ نبَّهني إلى ذلك فصرختُ:

.حتى لو كانوا من المريخ، ما شأني بهم!

أنا قادمٌ إلى هنا كي أعمل لا لأتزوج.

.أيّها الأبله، قالَ أيهم بهدوء:

.أريد أن ألفتَ انتباهكَ إلى أنّهم متدينونَ لا يحبذونَ الشتائمَ الدينية فتجنّبها.

أوّلُ عبارةٍ سمعتها من المسؤولِ عن الكافيتريا وهو يخاطبُ أحد العاملينَ بلهجته

(ذات اللهجة المستخدمة في مسلسل ضيعة ضايعة)، كانت شتيمةً دينيةً جنسيّة صارخة لأنّه كسرَ مجموعةً من الكؤوسِ دفعةً واحدة!

نظرتُ إلى أيهم نظرة مطوَّلة.. تأمَّلتهُ ملياً ثمَّ قلت:

.حقّاً إنهم قومٌ لا يحبذونَ الشتائمَ الدينية!

بعدَ أن تعرّفنا إلى المديرِ شرحَ لنا طبيعة العملِ ثم غادرنا الصالة المُغلقة.

كنَّا على شاطئِ البحرِ تماماً حيث الكافيتريا ذات المظلّاتِ المُستطيلة الكبيرة..

لساعاتٍ ثلاث قُمنا بتنظيفِ الشاطئِ من الأعشابِ البحرية، ثم سبحنا قليلاً وجلسنا لتناولِ الطعام.

اقتربَ محمد (المسؤول عن الكافيتريا) وراحَ يحدِّثنا عن النساءِ دون احمٍ أو دستور.

.انظر إلى هذه، مهبلها من النوعِ الضيق

انظر إلى تلك، مهبلها من النوع الإسفنجي.

قاطعته:

.كيف عرفت أن مِهبلها من النوعِ الإسفنجي؟ ثمّ، ما هو النوعُ الإسفنجي؟

بصراحةٍ أوَّل مرةٍ أسمع بهذا الصنفِ رغم علمي الجيد.. نسبياً.

قال محمد بجديّة:

.فوقَ كلِّ ذي علمٍ عليم.

تركنا الرجلُ عائداً إلى مقرِّهِ في المحاسبة وحين فرغتُ من الطعامِ أشعلتُ سيجارة وقلت لصديقي:

.إنهم قومٌ متدينون حقاً.

أبدى صديقي استغرابهُ مثلي فقد كانَ قريبهُ قد حذّرهُ وهو بدورهِ حذَّرني..

في صالةِ استقبالِ مسبحِ الشعبِ كان يقفُ شابٌ طويلٌ نحيلُ القدّ، أبيض البشرة، أنيقٌ ذو شعر أسودٍ ناعمٍ وعينينِ هادئتينِ ثاقبتين.

كانَ (عبد القادر) يحفظُ المئات من أبياتِ نزار قباني وكلَّما فرغتُ من عملي ذهبت إليه.

أنا أدخِّنُ وهو يقرأ على مسمعي شِعراً لنزار.

هو يُدخِّنُ وأنا أُسمِعُهُ ما أحفظُ للمتنبي.

خريجُ لغةٍ عربية وقارئٌ من الطرازِ الجميل.

لأنّه سوري، يعملُ في استقبالِ الناسِ لدى دخولهم مَسبحاً شعبياً.

زمنٌ طويلٌ مضى على ذلكَ الزمن.

الدنيا بأسرها تغيَّرت وحربٌ طويلةٌ نشبت.

هم يَسمعونَ عنّا قصصاً، ونحنُ نسمعُ عنهم قصصاً.

القصصُ غدَت أكثر دموية وعنفاً وتحريضاً..

بعضها صحيح، لا أحد ينكر. أغلبها خاطئ..

قلّةٌ ربما يُدركون.

البستان

احتسبَ الكابتن علوان لنفسهِ ركلةَ جزاء.

احتضنَ الكرة المهترئة بيده موجهاً أصابعَ الاتهامَ لسومر بعرقلتهِ في منتصفِ الملعبِ الترابي غربَ الحارةِ القبلية من قريةِ بسنادا وكانَ اسمه (البستان).

لم تفلح احتجاجاتُ سومر في ثني علوان عن عزمه فتقنية (الفار) لم تكن معتمدة بعد.

من جملة الاتهامات التي كالها قولهُ:

.علوان ليس سوى مهرجٍ ادعى السقوط دون أن يلمسهُ أحد..

وقد يكونُ السببُ الحقيقي إزاءَ سقوطهِ هو التعثرُ بخصيتيه.

صفعةٌ قويّة من كفِّ علوان على رقبةِ سومر من الخلفِ كان لها فصل الخطابِ في إنهاء الجدل السفسطائي.

كانت ركلة الجزاء التي احتسبها علوان لنفسهِ مصيريّة في تحديدِ الفائزِ.

إذا تمّ تسجيل الهدف، ستنقلبُ النتيجة من التعادلِ بهدفين إلى تقدّمِ فريقنا بثلاثة، وبالتالي الفوز بالمباراة.

الفوز بالمباراة يعني الحصول على الجائزة.

كانَ كلّ لاعبٍ يحضرُ ليرة سوريّة يتمّ تسليمها لطرفٍ مُحايد.

الفريق المنتصر، يحصلُ على مجموع الليرات، وعندما تقسم بيننا يكونُ نصيبُ الواحد اثنتين.

بهاتين الليرتين، يستطيعُ الفتى أن يحصلَ على المثلجاتِ التي كان سعرها مساوياً لحصته بعد الربح.

أمسكَ علوان بالكرة ووقفَ في منتصفِ مرمى الخصم.

بثباتٍ وعزم، تقدمَ نحو الأمام وهو يعدّ الخطوات، ثمّ وضعَ الكرة في مكانِ الخطوةِ السابعة.

من أحد البيوتِ المتاخمةِ للبستان، كانَ صوتُ المذياع الذي يبثّ على أثير دمشق برنامجَ (حكم العدالة) يصلنا بوضوحٍ يحتضر.

في السماء، سُحُبٌ ربيعية تطفو ثمّ تمارسُ شغفها الأزلي في تقليدِ الكائنات..

بعينين ثاقبتين، وجسدٍ متأهب، تقدّم علوان للتسديد.

الجميعُ في حالةٍ من الترقّب، ما من أحدٍ هنا يريدُ أن يخسر الليرتين..

رفع يده الطويلة كمن يلوح لمسافر وقال للحارس نعمان:

.سلّم ع البابا يا حبّاب...

ثمّ ارتكزَ على ساقهِ اليسرى وأطلقَ العنان بكلّ ما أوتي من قوةٍ لقدمهِ اليمنى التي حفرت الأرضَ من تحت الكرة وجعلته يصدرُ صوتاً كالعواء بالمقلوب.

تحرّكت الكرة نتيجة الضربة الفاشلة بتثاقلٍ كما لو كانت تتثاءب ثم وصلت إلى يد الحارس بأمان.

نعمان، استغلَ انشغالنا بإصابةِ علوان والدماء التي تسيل من إبهام قدمه فرمى الكرة إلى لاعبي فريقه.

أبناء الذينَ، تمكنوا دونَ عناء من تسجيلِ هدف الفوز.

***

وهكذا يا زوربا الحبيب، خسرت الليرتين..

حانَ وقت النوم...

الابتسامةُ القاتلة

في لقائنا الأول، بُعيدَ انتقالي إلى هذهِ العمارة، حسبتُ الأمرَ لباقةً منها.

بعدَ تفكيرٍ بسيط، ظننتُ الأمرَ طبعاً لطيفاً من طباعها إذ ثمّة فتياتٌ تكونُ الابتسامة مرسومة على شفاهِهنّ الشهيّة خلقة.

أنا مُجبرٌ كل يومٍ على التواجدِ في هذا المصعدِ عندَ السابعةِ صباحاً كي لا أتأخرَ عن دوامي في المجلة.

كما استنتجتُ بعبقريتي البحتة، هي مُجبرة على التواجدِ فيهِ كي لا تتأخرَ عن دوامها في المدرسة.

الناهدانِ والجسدُ الممشوقُ كحورةٍ بريّةٍ، بقية الملامحِ الآسرة لفتاةٍ في عزّ الصبا، أقنعوني بما لا يقبلُ مجالاً للشكِّ أنّها في الصفِّ الثاني عشر أو الحادي عشر على أقلِّ تقدير.

أنثى.. وسبعة عشر عاماً..

يا لهُ من مزجٍ خُرافي لأجملِ الافتتاحيات السينمائية.

اللقاءان التاليان أكدا خطأ ظنّي.

هذهِ الابتسامة السّاحرة، العامدة المُتعمّدة، لا يمكنُ أن تكونَ محضَ ردة فعلٍ أو مُجرّدَ لباقة.. وأكادُ أجزمُ أنها ابتسامة المُعجبة.

ها أنا أدخلُ عامي الثامن والثلاثين بعشراتِ الطعناتِ والندوب، وها هيَ الحياة قرّرت أن تكافئني بهذهِ الصبية المُدللة .

على خِلافِ ما حدثَ لسنواتٍ طوال، أراني لا أطيق صبراً مرورَ الساعات كي أستيقظَ باكراً.

.مُدهشٌ، لا بل مُثيرٌ لموجٍ متلاطمٍ من الدهشة ما يمكن لابتسامةِ أنثى واحدة أن تفعلهُ.

صرتُ أهتمُّ بأناقتي أكثر.

أقفُ أمامِ المرآة مطولاً، أحرصُ على تشذيبِ لحيتي التي غزاها الشيب..

بعد أسبوعٍ وثلاثةِ أيام، اتخذتُ القرار:

.سأفتحُ معها حديثاً وأدعوها إلى مكانٍ ما. هي من تبتسمُ كلّ يومٍ وعليها أن تتوقعَ ذلك .

رنّ جرس المنبهِ عند السادسة فقفزتُ من فراشي كذئب.

أخذتُ حمّاماً سريعاً وارتديتُ أجمل بدلةٍ عندي.

عند السابعة تماماً كنتُ في المصعد وكانت هي هناك.

.صباح الخير.

قلتُ بارتباك.

.صباح النور.

أجابت بجرأة.

وقبل أن أنطقَ بما تدربتُ عليه لأيامٍ قالت:

.سامحني على التطفل (عمّو) ولكن، ألستَ الكاتب فلان؟

غامتِ الدنيا في عيني وفقدتُ التركيز.

(عمّو)!!

أنا عمّو!!

كيف ولماذا ومتى

استقبلتُ الطعنة بركبتين ترتجفان وأومأت برأسي إيجاباً.

.على فكرة، أحبّ قصصك..

أتابعكَ سرّاً على (الفيسبوك) ولا تعرف كم أنا مسرورة لأننا نسكنُ نفس العمارة.

فُتحَ باب المصعد وبذات الابتسامة القاتلة قالت وهي تغادر :

.باي..

***

ببطءٍ، اقتربَ طرفا الباب حتى تلاصقا..

كنتُ هناكَ في الداخلِ المعتم..

وحيداً.. حزيناً.. أهوي رويداً رويداً..

غير مصدقٍ أنني أصبحتُ بالنسبةِ لصبيةٍ جميلة في السابعة عشر.. (عمّو).

سؤال

ربما كانَ للكتبِ الكثيرةِ التي قرأتها منذ بدايةِ مرحلةِ التعليمِ الإعدادية دورٌ كبيرٌ في تشكيلِ واحدةٍ من أهمِّ الخصالِ التي أبعدتني عن الناسِ ألا وهيَ كرهي الشديد للغباءِ والأسئلةِ الغبية.

عندي حساسيةٌ مفرطةٌ تجاهَ الغباءِ لم يسلم منها أعزّ الأصدقاءِ والأقرباءِ ما جعلني في نظرِ مُعظمهم مغروراً مُتعجرِفاً.

ذاتَ مرّة، نشبَ بيني وبين والدي عراكٌ لفظي عنيفٌ بسببِ سؤالهِ عن رغبتي في إكمالِ الدراسة ضمنَ الفرعِ الأدبي.

بعدَ جدالٍ عقيم قلت:

.لأنني عبقريٌ في الجبرِ والفيزياء والكيمياء!

أيّ نوعٍ من الأسئلةِ الحمقاء هذا؟

وكان هذا منذ زمنٍ يبدو الآن بعيداً جداً..

قبلَ أيام، ذهبتُ إلى مدرسةِ ولدي زوربا كي أعيدهُ إلى المنزل.

وبينما كنتُ ممسكاً بيدهِ لنعبرَ الشارعَ سألته:

.ماذا فعلتَ اليوم في المدرسةِ حبيبي!

رفعَ زوربا رأسه ونظرَ بدهشةٍ كأنهُ يراني للمرةِ الأولى وقال:

.رقصنا!

أيُّ نوعٍ من الأسئلةِ الحمقاءِ هذا؟!

نهدٌ ديكتاتوري

لأنَّ من يجلس مكانهُ لن يُحدثَ أيَّ تغيير، وضَّبتُ حقيبتي وانطلقتُ صوبَ البحر.

اليوم إجازتي الأسبوعية ولا بأس ببعضِ الوقتِ على الشاطئ.

في الطريقِ غير المزدحمِ قدتُ سيارتي المتواضعة وصوتُ فيروز يغمرُ الأرجاء:

.شو كانت حلوة الليالي..

أشعلتُ سيجارةً سحبتُ منها مجّة ثمَّ أخرجتُ يدي التي تحملها من النافذة ممسكاً المقودَ بالأخرى والهواءُ العليلُ يداعبُ كياني مع ساعاتِ الصباحِ الأولى.

كانَ الشاطئُ مُزدحمَاً بالسَّابحينِ والسَّابحات.

استخدمتُ راداري الخاصَ لرصدِ منطقةٍ مُكتظَّةٍ بأجسادِ الصبايا الروسياتِ والأوكرانيات ثمّ اتخذتُ مكاناً إلى جوارِ ثلاثِ فتياتٍ يرتدين لباسِ البحرِ ذي القطعتين فقط... "البكيني" الذي يُبكّيني.

خلالَ تمركزي الاستراتيجي حرصتُ أن يبدو كلُّ ما سبق عفوياً دونَ تدبيرٍ حتى أنني عقدتُ الحاجبين بينما كنتُ أخلعُ ملابسي عسى أن تخرجَ من بين الجموعِ شقراء تقول:

.إن كنت تقصد قتلي.. قتلتني مرتين.

بلعتُ كرشي كي أبدو ذا جسدٍ رياضيٍّ متناسقٍ ثمّ انطلقت..

بكاملِ قواي العقلية كنتُ أعتقدُ أن جميعَ النساءِ يراقبنَ نزولي إلى الماءِ بإعجابٍ وافتتان، أمّا الحقيقة..

لا أريدُ أن أعرفها...

أخذتُ نفساً عميقاً ثم غطستُ تحتَ الماءِ وبدأتُ أشقُّ الأعماقَ بساعدي مستمتعاً بالأزرقِ من كلِّ حدبٍ وصوب.

حين انتهى مخزوني من الأوكسجين صعدتُ إلى السطحِ وبدأت العوم.

أنهيتُ وصلتي الاستعراضية الفاشلة ثم بلعتُ كرشي مرة أخرى واتجهتُ إلى المقر.

كنتُ أمشي بين الأجسادِ المستلقيةِ هنا وهناك كأنَّ لا نهدَ من هذه النهودِ التي تلمعُ تحتَ أشعة الشمس يعنيني.

كأنّ السيقانَ والمؤخراتِ التي تطمحُ للحصولِ على (البرونزاج) الملائمِ خارج نطاق اهتماماتي الشخصية.

جلستُ ثمّ أشعلتُ سيجارة وتظاهرت بتأمّلِ السماء.

فجأة..

وبينما كنتُ سارحاً في تأمُّلاتي العميقةِ قامت إحدى السيدات الروسيات قربي بحركةٍ غير متوقعةٍ فخلعت القطعة التي تغطِّي نهديها كي تتيحَ الفرصة أمامهما ليعانقا جيداً أشعة الشمس.

كانَ نهداها الأبيضانِ متوسطي الحجم لا هما بالطريينِ ولا بالصلبينِ وبالقربِ من حلمتها اليسرى شامة جميلة.

اختلت بوصلتي الداخلية وارتبكت منطلقاتي النظرية ثمّ بدأت عنفاتُ جهازِ الطردِ المركزي تدورُ بطاقة نووية..

حافظتُ على رباطةِ جأشي وتظاهرتُ أن هذا المشهدَ لا يعنيني. في الحقيقة، كانت روحي في أعماقها تذرفُ الدمعَ من روعةِ المشهد.

قلتُ لنفسي:

.قد تكون هذه الخطوة التي افتعلتها الفتاة مقصودة باعتباري مواطناً سورياً وكما تعلمون كلّ مواطنٍ سوري هو محورُ الكونِ حسبَ تصنيفه لنفسه بينما في الحقيقة...

. خسئتِ أيتها الحسناءُ الشهيةُ الشبقة اللذيذة اللئيمة يا ذات النهدين الأسطوريين.

قلتُ وأنا أختنقُ بدخانِ السيجارة..

. لن أسمحَ لهذا الاستفزازِ الصارخِ أن يُظهرني كالأبله. لا للضعفِ، لا للاهتزازِ، لا للتوتر، لا للإذلال..

والشعب السوري ما بينذل.. الشعب السوري ما بينذل..

إلى ما هنالكَ من هتافاتٍ صامتةٍ ردَّدتها بيني وبينَ نفسي حتى تحوّلتُ إلى مظاهرةٍ قائمةٍ بحدِّ ذاتها ضدَّ نظام النهدِ الديكتاتوري.

استمرَّت جارتي في بطشها لأكثرِ من ربعِ ساعةٍ بعد ذلك استهدت بالرحمنِ وأعادت وضعَ حمالة صدرها لتحملَ صدرها.. ويا لهُ من عمل نبيل.

بعدَ فترةٍ، وقبل أن ألتقطَ أنفاسي.. طلبت الفتاةُ من صديقتها أن تساعدها في وضعِ الزيتِ على جسدها.

أيها الأصدقاء، دعوني أخبركم بسرّ..

. رؤية امرأةٍ تدلِّكُ جسدَ إمرأةٍ أخرى وهما شبه عاريتين أمرٌ لا يحدثُ في بثٍّ حيٍّ ومباشرٍ أمامَ المرءِ كلَّ يوم.. ولا كلّ عام.

ما زادَ الطينَ بلَّة.. ضحكاتهمَا وهمَا تتبادلان المزاح.

بدأت أماراتُ الهزيمةِ تبدو على ملامحي وانتابتني رغبة عارمة في البكاءِ حينَ راحت صديقتها تمرّرُ يدها على ثنايا اللحمِ الأبيضِ وأنا أراقبُ بحسرةٍ عن كثبٍ مُشعلاً السيجارةَ بعقبِ السيجارةِ لكن عندما حطَّت أصابعُ السيدة بين طرفي مؤخرةِ صديقتها وبدأت تداعب المنطقة بالزيتِ اللزجِ صعوداً ونزولاً رفعتُ يدي صوبَ السماءِ وصرخت:

.يا الله.. ما النا غيرك يا الله.

فندقٌ رخيص

اتفقنا على السعرِ وقُضيَ الأمر.

كلّفني جسدها مئةً وخمسينَ دولاراً.

فتاة أوكرانيةً في مطلعِ العشرين تشبهُ الممثلة (درّة) كأنها توأمها غير المتطابق.

ولأنَّ اصطحابَ الممثلة درة إلى الفراشِ بمئةٍ وخمسين دولاراً أمرٌ مستحيل قرَّرتُ أن أستعيضَ عنها بهذه الفتاة ذات صيفٍ من عام 2008 بعدَ أن صادفتها في إحدى الحانات.

مرّتِ الساعةُ بلمحِ البصر.

اللعنة على الزمنِ اللئيم الذي يحوّلُ لحظة الهمّ إلى يومٍ وساعة السعادةِ إلى ومضة.

وجدتُ نفسي على غيرِ العادةِ بعد هكذا معمعةٍ نشيطاً فقصدتُ الشاطئ.

لم يكن هنالكَ من أحدٍ سواي فجلستُ أراقبُ انعكاسَ أضواءِ المدينةِ من على المويجاتِ الناعسة ثمّ أشعلتُ سيجارة.

فجأة..

رأيتُ خيالاً مرعباً يخرجُ من الماءِ بينما يتطايرُ الرذاذُ كشلالٍ عن قامتهِ المهولة وراحَ يتقدمُ صوبي.

تساءلتُ بخوفٍ مع نفسي:

.أيكونُ رسولاً من الرفيقِ الأعلى يحملُ في جعبتهِ توبيخاً على ما اقترفتهُ بحقِّ فخذِ تلك الفتاةِ قبل قليل؟

ثمَّ أردفتُ في محاولةٍ لطمأنة نفسي الأمّارةِ بالوهم:

.ومتى كانَ عضُّ فخذِ المرأة خطيئة؟ لقد خُلقَ لِيُعَضّ.

حينَ صارَ الخيالُ قبالتي تماماً وتبدّت ملامحهُ أكثر جفّت الدماءُ في عروقي..

أشعلتُ سيجارة بيدين مرتعشتين وقلت:

.لم يكن أمراً يتطلبُ حضورَكَ شخصياً أيها الرفيق.

لكنهُ بقي صامتاً.

حاولتُ أن أتظارف:

.هيَ من عرضت جسدها للبيع فاشتريت. حريٌّ بهِ أن يزعلَ منها لا مني فأنتَ أدرى بحالِ الرجلِ عندما يكون وحيدا، ثمّ اصطنعتُ ضحكةً سخيفة.

لم يعجبهُ تظارفي وازدادَ تجهماً.

ليسَ هذا وحسب، تجمَّعت في السماءِ خلال لحظاتٍ آلافُ الغيوم الداكنةِ وبدأ البرقُ يضربُ بقسوةٍ أمواجَ البحر الهائجة وحينها أدركتُ أنني وضعتُ نفسي في موقفٍ لا أحسدُ عليه.

في هذه الأثناء، خُيِّلَ إليّ أنّ يدهُ تهمُّ باقتلاعي فرجوتهُ أن يسمعني مرة ثانية.

هدأت الرياحُ قليلاً كأنها استجابت لرجائي من خلاله فقلت:

. أنا رجلٌ بسيطٌ جداً وأحبُّ النساء جداً، هذا كل ما في الأمر وأعتقد. كما تعرفُ طبعاً. أنّ خطاياي تافهةٌ إذا ما قارنتها بتلكَ التي ينهبُ أصحابها أموالَ الناسِ ويتسبّبون في قهرهم وتجويعهم وذلهم وقتلِ طموحهم وحاضرهم ومستقبلهم.

لقد كانت فتاة جميلة تشبهُ الممثلة درة وأنتَ تعلمُ كم أعزّ درة...

بضربةٍ واحدة من تلك اليد فقدتُ الوعي وظننتُ أنه أرسلني إلى الجحيم.

استيقظتُ وكانت الساعة قد جاوزتِ الثالثة بعد منتصف الليل.

وجدتُ نفسي على سريرٍ في فندقٍ رخيصٍ أتصببُ عرقاً.

سحبتُ من علبةِ التبغِ سيجارة ثم لمحتُ على ضوء الولاعةِ وأنا أهمّ بإشعالها فتاة ترقدُ إلى جواري وعلى وجهها ابتسامة أنثى لم تعرض جسدها للبيع.

فتاةُ دارِ الأوبرا

كانَ يوماً ماطراً عندما زارني حسين في غرفتي بالمدينة الجامعية وكنتُ أقرأ للمرةِ الثالثة مُعجِزَة ماركيز عن العزلة.

طلبتُ منهُ أن يُسدِنا معروفاً فصنعَ كأسين من المتّة ثمَّ قالَ وهو يسحبُ سيجارة من علبةِ الحمراءِ الطويلةِ التي كانت أمامي على الطاولة :

.أنت مُضيف رائع، شكراً لأنكَ لم تطلب أن أنظفَ الغرفة أيضاً.

أشعلتُ سيجارتهُ ثم أشعلتُ واحدة لنفسي وقلت:

.على الرحبِ والسعة، تفضَّل كلَّ يوم.

خفّت وتيرةُ الأمطارِ في الخارجِ وبينما واصلتُ قراءتي استغرقَ رفيقي في الاستماعِ من مسجلةٍ قديمة لموسيقى دلشاد سعيد وهو ينظرُ عبرَ النافذةِ إلى دمشق كيفَ تستحمّ بفتنةٍ ثمّ قال :

.يعرضون في دار الأوبرا عند الثامنة فيلماً لهيتشكوك فهل أنتَ مُهتم؟

.ما اسمه؟

.النافذة الخلفية.

.لم أشاهدهُ من قبل، إن كنتَ ستذهبُ سأذهب .

حينَ خرجنا من الوحدةِ رقم 15 طالعتنا حديقة المدينة الخاوية وفي الساحاتِ راحَ بعضُ الطلبةِ يتمشون تحتَ الرذاذِ وقبلَ أن يقترحَ صديقي ركوبَ السيرفيس اقترحتُ الذهابَ مشياً .

.المشي في دمشق تحتَ المطر كانَ مُتعةً تلك الأيام .

كانَ جمهورٌ لا بأس به واقفاً أمامَ الدارِ في انتظارِ العرضِ فوقفنا وأشعلنا سيجارتين .

قال حسين :

.بالمناسبة، امتحاناتُ هذا العام لن تسألكَ أيّ شيءٍ عن العزلة.

عببتُ من لفافتي وقلت :

.ربما، لكن الحياة قد تفعل .

فجأة، شعرتُ بلمسةٍ لطيفةٍ على كتفي فالتفتّ ودونَ إرادةٍ فتحتُ فمي كما يفعلُ الأبله.

كانت تقفُ أمامنا فتاة طاغية الجمال بشعرٍ أسودٍ ساحر مُسترسلٍ حتى منتصفِ ظهرها ولها عينان أوسع من مُخيلتي وترتدي جاكيتاً جلدياً فوق كنزة صوفٍ خمرية أمّا بنطالها الجينز فكانَ مشدوداً على فخذيها وساقيها كحزامٍ ناسف.

ابتسمت الفتاة وقالت بلهجةٍ شاميّةٍ مغرية:

.عذراً على الإزعاج ولكن، لماذا تتجمعون هنا؟

كنت على وشك أن أقول (من أجلك) لكنّي ربطتُ جأشي وتماسكتُ قبل أن يسيلَ لعابي وقلت :

.من أجل فيلم هيتشكوك رحمه الله.

.الفيلم حلو؟

سألت الصبية وكانت كلما فتحت فمها ازدادت فتنة وأشياء أخرى فقلت بارتباك :

.سنعرفُ بعد قليل.

.أتنصحني بمشاهدته؟

كنتُ أخرجُ من جيب معطفي علبة التبغ حين أجبتُ على الفور :

. إن كان من بين الخمسة ملايين مواطن سوري في دمشق شخص واحد ينصحكِ بمشاهدته فأنا هو .

ابتسمت الفتاة بلطفٍ ثم وقفت إلى جوارنا تنتظر بصمت .

اقتربَ مني حسين وقال بهمس:

.هل تعتقدُ أنها اختارتكَ عن عبثٍ كي تسأل؟

لا تكن أحمقاً وانتهز فرصتك.

كانَ صديقي يلعبُ دور الشيطان بإقناعٍ مدهش خاصة حين أضاف :

ستجلسُ في القاعةِ إلى جوارك، هذه من البديهيات الآن ..

اسمعني جيداً.. ستكون الأنوار مطفأة والضوء الوحيد هو المنبعث من تلك الشاشة الكبيرة..

لا تفقد أعصابك وتلتصق بها ..

تابع بداية الفيلم كإنسانٍ طبيعي وبعد مضي ربع ساعة، بهدوءٍ وحنكة، دع يدكَ تتسلل إلى يدها وضعها فوقها .

مجّ حسين من لفافته بعمقٍ ثم أردف :

.صدقني قد تسبقكَ هي إلى فعل ذلك ومن يدري، ربما وضعت يدها المباركة فوق...

كانت المشاهدُ في ذهني تتوالى مع كلماتِ صديقي حتى فقدت الشعور بالمكان والزمان ..

تحوّلتُ إلى أثيرٍ ورحتُ أمرّرُ أصابعي بين أصابعها وألمحُ بطرفِ عيني ابتسامتها ثم فجأة ستنهض..

.تماسك .

قلت لنفسي ..

ليسَ نهوضها سوى دعوة صريحة للحاق بها ..

سأنهضُ وأتبعها وحين نصبحُ في بهو الدارِ ستسمعُ خطوي وتلتفتُ ثم تقف..

ستنظرُ إليَّ بشهوةِ نساءِ الدنيا مجتمعات وتقول :

.منزلي ليس بعيداً إن كنت ترغب، أدعوكَ إلى كأس نبيذ..

.موافق ..

سأجعلُ منكِ أسعدَ امرأةٍ على سطحِ الكوكب ..

.العرضُ يبدأ بعد قليل.. تفضلوا ..

كان صوتُ الرجلِ الذي دعانا إلى دخول الأوبرا قوياً .

قال حسين :

.أزف الوقت، لندخل .

التفتّ خلفي كي أرى الفتاة ثم التفتّ عن يميني وعن شمالي وحين لاحظَ صديقي اضطرابي قال :

.عمّن تبحث؟

.عن غودو..

.لا تقل إنك تبحث عن الفتاة؟

.بالطبع أيها الأحمق، أين اختفت؟

.اعذرني يا صاحبي، لكن الأحمق هو من لم ينتبه إلى مغادرتها بعد أن كنتَ الشخصَ الوحيد من بين الملايين الخمسة الذي نصحها بطريقة مريبة أن تشاهدَ فيلماً هو نفسه لم يشاهده من قبل.

.وماذا عن نصائحكَ بانتهازِ الفرصة أيها اللعين ..

ابتسم حسين ببلهٍ وقال :

.منذ اللحظة التي وقفت فيها الفتاة حتى مغادرتها.. أنا لم أتفوه بحرف.

غرفةٌ في المدينةِ الجامعية

قبلَ سنين طويلة، عندما التحقتُ بكليةِ الإعلام في دمشق التي تبعدُ عن مدينتي اللاذقية قرابة النصفِ ألفٍ من الكيلومترات، سكنتُ المدينة الجامعية .

المدينة الجامعية في دمشق، أشبهُ بالغابة والبقاء فيها للأقوى.

لأنكَ فقير، يضعونكَ في غرفةٍ واحدةٍ مع ستةِ أو سبعةِ طلابٍ وعليكَ أنتَ وهم أن تقوموا بتصفيةِ بعضكم ليبقى فيها أربعة طلبة على أقل تقدير.

هناك، كما في الخدمة الإلزامية، تتعرّفُ إلى أبناءِ المحافظاتِ السوريةِ ويتعرفونَ على حقيقتكَ دونَ مجاملاتٍ أو كلام مُزيف.

الاصطفافاتُ الطائفية والمناطقية تظهرُ واضحة من خلال (الغرف) .

هذه غرفة الحلبية، تلكَ غرفة اللوادقة، هناكَ غرفة الأدالبة، وهلمَّ جراً .

طبعاً بعض انتقالاتِ الطلبة بين الغرف تتمّ بالتراضي كأن يكونَ مكانُ أحد طلابِ الجزيرةِ مثلاً في غرفة الطراطسة أو العكس، وهكذا..

جمعتني غرفتي بصديقي وائل من جبلة وكان يدرسُ الإعلامَ معي بالإضافةِ إلى صديقين آخرين من بانياس واللاذقية هما غديرٌ وسامر.

بعدَ شهرٍ ربما من استقرارنا في الغرفةِ التي كانت تقبعُ في الدورِ الخامسِ من الوحدةِ السكنية في منطقة الطبالة المتاخمة للدويلعة، قلت لوائل:

.ما رأيكَ بشراءِ زجاجتينِ من النبيذِ مع بعضِ الموالحِ من أجلِ المساء. سنقرعُ الكؤوسَ وندخّن حتى الصباح .

استغرقَ الأمرُ منهُ تفكيراً ثانيتين.

إلى الدويلعة ذهبنا واشترينا عدة الخمرِ وما أن حلّ المساءُ حتى بدأنا الشرب.

كانت غرفتنا ذات الرقم 64 مطلة على الجهة الشرقية من دمشق .

.من لم يتأمل دمشق وهي تشعُّ مساءً كبحرٍ من الأضواءِ فاتهُ الكثير.

دمشقُ لم تكن مدينة عادية في يومٍ من الأيام.

قدّمتُ لوائل سيجارة ثمَّ أشعلتُ واحدة لنفسي بينما راح المتنبي ينشدُ بلسانِ فيروز:

.وعذلتُ أهلَ العشقِ حتى ذقتهُ فعجبتُ كيفَ يموتُ من لا يعشقُ

كنا نتسامرُ ونشربُ الأنخاب وإذ ببابِ الغرفةِ يُقرع ويدخل شاب خجول .

.السلام عليكم.

.وعليكم مثل ما ذكرتم، تفضل.

قال الشاب:

.أنا زميلكم سمير من يبرود، أدرسُ الإعلام ووصلي في هذه الغرفة.

رأيت الوصلَ وكانَ نظاماً فطلبتُ منه الجلوس.

راحَ الشابُ ينظر بوجلٍ إلى زجاجةِ النبيذ وقد راعهُ منظرها.

كي أقطعَ شكهُ باليقين.. قلت:

.ما رأيك بكأس؟

فتحَ سميرٌ فمه ببلاهة.

.كأس ماذا!

.يانسون..

سأل باندهاش ..

خمر؟

.بإمكانكَ أن تسميهِ خمراً وبإمكانكَ أن تسميهِ عصيرَ عنب.

ثم رحنا نضحكُ بينما كان سمير يتصبّب عرقاً.

جلسَ لنصفِ ساعةٍ ثم اختفى.

خلال الدوام الدراسي سألنا عنه وعلمنا من أحدهم أنه .وعلى حد تعبيره. يفضلُ أن يخسر ألفي ليرة أجرة غرفة على أن (يخسر دينه) بالإقامةِ في غرفة شاربي الخمر.

ثم (دارت الأيام، ومرت الأيام) وكنتُ جالساً على درجِ قسمِ الإعلام بصحبةِ وائل نتمعّنُ في مؤخراتِ زميلاتنا الشهيّة وإذ بسميرٍ يلقي علينا التحية، ويجلس قربنا.

أخرجَ علبة السجائر من جيبِ قميصهِ ثمَّ ضيفنا سيجارتين ورحنا ندخن .

قلت مازحاً ..

.أهكذا يا سمير الحقير لا تسكُن معنا فقط لأننا نشرب النبيذ؟

تباً لك (بالإنكليزية).

تحجّجَ بأمورٍ لم أعد أذكرها.

فجأة، لاحظتُ أن سمير يعبُّ من السيجارة بشراهةٍ غريبةٍ ويكادُ يدخّن عقبها.

.رويدكَ صديقي.

قلتُ مازحاً:

.في العلبةِ سجائرٌ كثيرة وما من داعٍ كي تحرقَ أصبعكَ وأنتَ تدخنُ العقب.

نظرَ سمير إليّ بحدّة ثم قال:

.يا معلم، اللذة من الخلف.

ببلاهةٍ عزّ نظيرها نظرتُ إلى وائلٍ ولسأُن حالنا يقول:

.ها هو الشيخ الذي أتخمَ الجامعة بقصةِ شربنا للنبيذ يعطينا درساً مهماً في الأحم أحم.

هززتُ رأسي على طريقةِ الهنودِ وقلتُ ساخراً:

. ما الذي تقصدهُ بموضوعِ اللذةِ من الخلفِ صديقي سمير؟ وما هيَ مشكلتكَ مع ذاك الذي في الأمام؟

سحقَ سميرٌ العقبَ بحذائِه ونهضَ ثم التفتَ إلينا مع نظرة خبيرٍ وقال:

.الأيام قادمة، ستتعلمانِ من تلقاءِ نفسيكما.

يا شباب، صدقوني، اللذة الحقيقية تكمنُ في الخلف. ثم (ذهبَ مع الريح).

بقينا مكاننا والدهشة تغمرنا وبعد دقيقتين من الصمتِ، انفجرنا ضاحكين حتى ملأ صوت قهقتنا المكانَ ونظرات الطلبة تطالعنا باندهاشٍ عظيم.

أحد الأصدقاء وقف قبالتنا بابتسامةٍ بلهاءٍ ثم راحَ يلحّ كي يعرفَ سبب الضحك الهستيري .

قال وائل:

. أوتدري بما جرى؟ تكمنُ اللذة من (ورا)

هكذا قال سمير ...

فما كان من صديقنا إلا أن تساءلَ بعفويةٍ وغباء :

مين سمير!

يوغا

وضعتُ في حقيبتي الصغيرة منشفة وزجاجة ماءٍ باردة ثمَّ اتجهتُ إلى الكورنيشِ البحري القريبِ من مكان إقامتي.

قرأتُ منذ مدةٍ عن اليوغا وفوائدها.

.سأمارسُ اليوغا.

- هكذا قررت بالاتفاقِ مع نفسي- وأيُّ مكانٍ أفضل من البحرِ.

سأتخذُ وضعية (زهرة اللوتس) وأتأملُ الطبيعة دونَ أن أنشغلَ بشيءٍ فالصفاءُ الذهني ضروري هذه الأيام.

فرشتُ منشفتي أرضاً، خلعتُ حذائي، تربّعت، ثمَّ وضعتُ قدمي اليمنى فوقَ ساقي اليسرى وحافظتُ على ظهري مستقيماً، تنفّستُ بعمق، أشعلتُ سيجارة، وانعزلتُ عن الواقع.

الموقرُ (بوذا) له فضلٌ كبيرٌ في تعليمِ الناس..

.تحياتي أيها الموقر بوذا..

الجميلُ في بشرِ هذه البلادِ أنهم منصرفون إلى أعمالهم ولا أحد يهتمّ للآخر.

تخيّلتُ نفسي جالساً هكذا على شاطئ الخضر أو الأبحاثِ في اللاذقية..

قسماً لأصيرنَ قصة السهرات ولينسينَ الناسُ الحربَ وشجونها ليتحدثوا في سهراتهم عن المتخلفِ الذي يمارسُ (اليوغا)، ولأرسلَ بعضهم أولادهم يلاحقونِي في الحارات.

.العصرُ وقتٌ مناسبٌ للتأمل.. لا تشغل بالك بشيء.

هكذا كنتُ أقول لنفسي حينَ سمعتُ صوتاً أنثوياً شهيّاً يقول بإنكليزيةٍ مُكسّرة:

.لو سمحت، هل أستطيعُ الجلوسَ قربك لممارسة اليوغا؟

نظرتُ خلفي فإذ بامرأةٍ شقراء ذات ملامحٍ روسيّة لا تخطئها العين ترتدي (فيزوناً) أزرق وقميصاً رياضياً أشبه بالقميص الداخلي يسمحُ لقسمٍ مُحترمٍ من نهديها بالإشراق.

.إنها تخاطبني أنا. الله أكبر.

بركاتك يا بوذا الحبيب.

لم يمض على ممارستي اليوغا أكثر من ربع ساعةٍ حتّى هلّت البشائر. إنها بشائر النصر.. بشائر (الفتح).. بشائر النسوان.. ويسعد ربّ النسوان..

كما هو واضحٌ، الموقر بوذا فهم مرادي منذ اللحظة الأولى.

تخيلوا، فتاة بنهدين أبيضين خرافيين وجسدٍ رياضي ممشوق ووجهٍ روسي ذي عينين زرقاوين تطلبُ أن أسمحَ لها بالجلوس قربي، فقط.. إن كانَ الأمرُ لا يزعجني. يا سلام.

حافظتُ على رصانتي ودونَ أن أنبسَ ببنتِ شفة أشرتُ لها أن تجلس.

مُتماسكاً، غير واهنِ العزم، استمريتُ في جلستي مُدّعياً أنني قد وصلت حالةً من التركيز، (يا لطيف يعني).

خلعت المرأة حذاءها الرياضي وجلست قبالتي فوقعَ نظري على أصابعِ قدميها وحينها دونَ إرادتي صرخت فارتبكت الفتاة واستفهمت عمّا أصابني كي أصدرَ ذلكَ الصوتَ فرجوتها ألا تكترث.

كانَ كعبُ قدمها زهري.. وردي.. فوشيا

القدمُ الصغيرة المزينة الأظافر بالمانيكور الأحمر..

اغرورقت عيناي دمعاً وأنا أتخيلُ كيفَ أتناول تلكَ الأصابع قبل الفطور وقبل الغداء وبعد العشاء..

نبّهتُ نفسي إلى أن الانشغال بهذا التفكير ليسَ من أصول اليوغا في شيء.

أغمضتُ عينيّ كي لا أبقى مبحلقاً بنهدها العظيم.

يا إله العرش..

أي جمال هذا..

ما الذي كنتُ تفكّر فيه عندما أبدعت هذه التحفة؟

فجأة..

وبحركةٍ مفاجئة أسندت تلكَ المرأة يديها إلى الأرض ثمّ أرخت رأسها ورفعت ظهرها وقدمها للوراء مما جعل مؤخرتها بالقربِ من وجهي تماماً..

نظراً لضيقِ (الفيزون).. استطعتُ أن أرى بوضوحٍ كيف دخلَ جزءٌ منه بين فردتي مؤخرتها فاستبشرتُ خيراً.

أحببت اليوغا. عشقتها وسأجعلها أسلوبَ حياة يومي.

أيّها الموقرُ بوذا، كم أنتَ عظيم.

.مرحباً حبيبتي..

هذه المرّة لم يكن الصوتُ نسائياً..

-.مرحباً حبيبي.

أجابت السيدة الفاضلة.

اقتربَ منها الرجلُ وقبّلها قبلة سريعة..

نظرَ إليّ وقالَ بلكنةٍ روسية:

.كيف حالك صديقي

قلت لهُ بغيظٍ لكن بصوتٍ خفيضٍ تافه:

.كس أختك يا زلمة

ثمّ رحتُ أفكرُ بحسرةٍ وأقول لنفسي:

.لا شكّ هو زوجها أو حبيبها ويا للخيبة.. يا للخيبة..

تحدثا بلغتهما الأم قليلاً.. ثم قالت لي:

.سررتُ بمشاركتكَ اليوغا، نهاركَ سعيد.

رحتُ أراقب فيزونها وهي تمشي إلى جوار حبيبها الحقير والألم يعتصرُ قلبي.

بمنديلٍ أبيض رحتُ ألوّحُ مودعاً وأمسحُ دموعَ الفراق.

رسالةٌ ليست عابرة من امرأةٍ غامضة

استوقفني حارسُ العمارةِ بعدَ أن ألقيتُ السلامَ في طريقي إلى المصعدِ قائلاً:

.لو سمحت سيدي، لديكَ شيءٌ تستلمه.

لم أكن أنتظرُ شيئاً من أحد فتوجَّهتُ صوبهُ مندهشاً ومرهقاً.

بعدَ ثوانٍ من البحثِ في جارورٍ أسفل مكتبهِ العريض أخرج ظرفاً أبيض مختوماً بالشمعِ الأحمر وسلمني إيّاه.

تمعّنتُ في الظرفِ ورحتُ أقلِّبهُ بيدي. حينَ أصبحتُ داخلَ المصعدِ تغّلب فضولي وفتحته.

.رسالة؟!

قلتُ لنفسي:

رحماك يا رب، من في هذا الزمنِ ما زالَ يكتبُ الرسائلَ على الورق؟

توقّفَ المصعدُ في الطابقِ الذي طلبتهُ وما زلتُ داخله غير مُصدِّق فنسيت الخروج ولأنَّ شخصاً ما طلبهُ في الطابق الأرضي عادَ الصندوق المعدني إلى النزولِ بينما كنتُ أعيدُ القراءة:

. أنا (المرأة ذاتُ القميصِ الخمري)، حبيبتكَ عندما (كانَ الكتابُ هدية حلوة)، والرفيقة (الممزوج عطرها بالعرق)..

بلعتُ ريقي أكثر من مرّة وأحسبُ أنني كنتُ أتعرّقُ عندما دخلَ رجلان ثم انطلقَ بنا.

هذه المرّة لم أنس الخروج منه.

دلفت الغرفة ثم ألقيتُ بجسدي على الكرسي المقابلِ لطاولةِ الكتابة، أخرجتُ من جيبِ الجاكيت علبة التبغِ وأشعلتُ سيجارة.

كانت الكلمات تنسابُ كلغزٍ أربكني كلّما أعدتُ قراءتها:

.أنا (سيّدة من دمشق) و(المرأة التي تصغي إلى حديثٍ عادي) وذاتها التي كانت على سريرك في (حارس المقبرة).

قد تعتقدُ أنني فقدتُ عقلي لكنّ الحقَ وحدهُ ما أقولهُ لك:

لقد عشتَ حياتكَ متوهِّماً أن الأنثى التي دعتكَ إلى ذلك الكرم في (بلغني أيها الملك السعيد) واحدة غيري لكنك كالعادة، مخطئ.

لم أشأ أن يكون قدومي مفاجئاً لهذا رغبتُ أن تتلقّى رسالتي قبلَ أن آتي إلى زيارتكَ مساء اليوم عند العاشرة.

محبّتي.

خلعتُ ملابسي ووقفتُ تحتَ الماءِ المتدفقِ من الدوشِ لنصفِ ساعةٍ غير مصدق أن هذا يحدثُ معي.

كنتُ مرهقاً للغاية فغفوتُ ما أن وضعت رأسي على المخدة وحين استيقظتُ كانت الساعة تقتربُ من الثامنة.

تناولتُ بعضَ الطعامِ ثمّ صنعتُ لنفسي كأساً من الشاي والحيرة تعصف بي.. والوقتُ يمضي.

في زمنِ الهواتفِ الذكية والرسائلِ الإلكترونية المُسافرة حولَ الكوكبِ بسرعةِ الضوء، تصلني رسالة ورقيّة من امرأةٍ غامضةٍ قرأت جميعَ قصصي كما باتَ واضحاً وتنتحلُ شخصيات النساءِ في تلك القصص.

ليسَ هذا وحسب.. ستزورني بعد أقلّ من ساعة.

قلت لنفسي:

.مُعجبة جريئة.. لم لا. ستكونُ قصة رائعة.

شذّبتُ لحيتي ورتّبتُ شعري ثم ارتديتُ كنزة و(شورتاً) مُريحين.

طبعاً لم أنسَ توزيعَ العطرِ في كلِّ مكانٍ فلا أحد يدري ما الذي يخبّئهُ الضباب.

كلّ شيءٍ في الغرفةِ أصبحَ جاهزاً لاستقبالها.

مع اقترابِ العاشرة زادَ انفعالي ورحتُ أشعلُ السيجارة بعقبِ السيجارة ثم لمتُ نفسي:

.أين الخبرة؟ أين الثقة؟ ولماذا كلّ هذا التوتر؟

مُجرّدُ امرأةٍ جديدةٍ وهذا كلّ ما في الأمر.. أثبت.

طبعاً، فشلتُ في امتحانِ الثباتِ خاصة عندما تجاوزت الساعة العاشرة بعشر دقائق.

.ربما لا تريدُ أن تبدو على عجلٍ فمنحت نفسها مزيداً من الوقت..

وما المانع؟ ليكن.

رحتُ أفكِّرُ وأنا أذرعُ الغرفة جيئة وذهاباً مقترباً في كلِّ مرّة منَ البابِ كي أسمعَ أي خطوةٍ أو همسةٍ لكن.. عبثاً.

لم يقف الأمرُ عند ذلك فها هي الساعة تقتربُ من الحادية عشرة.

عندما أطفأت السيجارة الأخيرة من علبة التبغِ وكانت الواحدة بعد منتصف الليل تأكّدت أنني وقعتُ ضحية فخ.

أطفأتُ ضوء الغرفة وشتمتُ نفسي لأنها سمحت لفتاةٍ .ربما تكونُ مُراهقة . أن تتلاعبَ بي.

استسلمتُ للرقادِ وحينَ استيقظتُ على صوتِ المنبّه كان رأسي يؤلمني من انفعالاتِ الأمس.

أخذتُ حمّاماً سريعاً وارتديتُ ملابسي كي أذهبَ إلى العمل.

حينَ هممتُ بفتحِ البابِ كانت تحته، في الفراغ الضيّقِ الذي ينسلُّ عبرهُ وشاحٌ رقيقٌ من الضوء.. رسالة.

تسارعت نبضاتُ قلبي وأنا أنحني كي ألتقطها ثمّ فتحتها على الفور:

.أعرفُ أنكَ انتظرتني..

تخيّلتُ كلّ خطوةٍ قمتَ بها منذُ اللحظةِ التي استلمتَ فيها الرسالة..

دهشتكَ، توترك، سجائرك، اهتمامكَ بتشذيب اللحية وترتيبِ الشعر، انفعالاتك، تخيّلاتك الجنسية الفاجرة..

لا تغضب..

أعرفكَ أكثر ممّا تعرفُ نفسك وأعلمُ كيفَ تخيلتني على سريرك فقد سبقتكَ إلى ذلك..

حتى عندما شتمتَ نفسك لأنّكَ صدقتني بسذاجة.. سمعتك..

شكراً لأنكَ كنتَ قصتي التي سأكتبها أنا.

ذاك صباحٍ بعيد

تصفّحُ الفيسبوك في الصباحِ الباكر.. مملٌّ وسخيف.

معظمُ الأعمالِ مكتبيةٌ في هذهِ الفترة وبينَ الحينِ والحينِ أهربُ إلى الفضاءِ الأزرقِ علّني أعثرُ على شيءٍ أو صيدٍ أو كنزٍ كما كانَ العجوزُ سنتياغو يهربُ إلى البحرِ رغمَ الحظِّ العاثرِ لأيامٍ وشهور..

الصفحةُ التي تظهرُ منشوراتِ الأصدقاءِ شبهُ خامدةٍ وفيها منشوراتٌ من سهرةِ الأمسِ معظمها تافهٌ لكن فجأة، ظهرَ أمامي منشورٌ كتبت صاحبتهُ:

.قد يكونُ هذا العالم.. جحيمَ عالمٍ آخر.

(ألدوس هكسلي).

لم يكن مضى على قراءتي لرواية (عالمٌ جديدٌ شجاع) أسبوعٌ أو أكثر بقليلٍ ومن خلالها تعرّفتُ إلى واحدٍ من أفضلِ أدباءِ إنكلترا خلالَ القرنِ العشرين السيد (ألدوس هكسلي) الأبُ الروحي للعظيمِ (جورج أورويل) الذي قدّمَ للبشرية روايتين من أجملِ التحفِ على مرّ الزمن ألا وهما:

(مزرعة الحيوان) و(1984).

على الفورِ دخلتُ صفحة (نور) وعلمتُ أنها طالبةٌ جامعية في قسمِ الفلسفةِ من خلالِ المعلوماتِ المذكورةِ في المكانِ المُخصصِ وحينَ تكونُ أيّ صبيّةٍ في المرحلةِ الجامعيةِ فهذا يعني أنّها تصغرني على الأقل بعشرِ سنين.

كعادتي حينَ أتأملُ صورةَ فتاةٍ جميلةٍ ضغطتُ على صورةِ الملفِ الشخصي لنور ورحتُ أتأمل.

وجهٌ ذو بشرةٍ بيضاء فتيّةٍ نقيّةٍ وعينانِ سوداوانِ واسعتانِ جريئتانِ تعمَّدت صاحبتهما وضعَ الكحلِ حولهما بطريقةٍ تخبرُ فيها الناظرَ أنهما فتّاكتين وقد كانتا دونَ مبالغةٍ.. كذلك.

كخبيرٍ في معاشرةِ النساءِ على الفيسبوك باتت عندي قناعةٌ أنّ أي امرأةٍ أكونُ البادئَ معها في المراسلةِ لن أحظى منها بشيٍ سوى صورةٍ لوجهها ومع كاملِ محبتي واحترامي لوجوهِ النساءِ الجميلة إلا أنها لا تصلحُ وحدها لكتابةِ قصة.

هكذا.. حزمتُ أمري ووضعتُ إعجاباً على المنشورِ الذي اقتبستهُ الفتاةُ من الصديقِ الطيبِ هكسلي وغادرتُ الصفحةَ بعد أن أزفَ أوانُ السيجارةِ الصباحيةِ مع فنجانِ القهوةِ في الحديقة.

حينَ عدتُ إلى مكتبي انشغلتُ ببعضِ الأعمالِ لساعةٍ أو اثنتين وعندما فتحتُ خلال الاستراحةِ صفحتي كانَ أولُ ما طالعني في صندوقِ الرسائلِ رسالةٌ منها تقول فيها:

.قد لا تعلمُ أو تذكر أنها المرة الأولى التي تضعُ فيها إعجاباً لي وقد لا تعرفُ كم أعشقُ القصصَ التي تكتبها لأنني لا أتفاعلُ معها كثيراً لكنكَ جعلتَ صباحي أجمل.

كتبتُ في ردّي عامداً متعمداً:

.يُسعدني ذلك أيتها العزيزة.. ليتكِ تجعلينَ صباحي أجمل.

لم يدم انتظاري لردّها أكثر من دقيقتين وكانَ الردُّ صورةً لها ترتدي فيها قميصَ نومٍ زهري يكشفُ الجزء العلوي من نهديها أما شعرها فكانَ ملفوفاً بشالٍ أخضر وقد فاجأني وجودُ نظارتين طبيتين فوق عينيها جعلتاها بطريقةٍ ما، مثيرة أكثر.

خرجتُ مسرعاً إلى الحديقةِ وفتحتُ الصفحةَ عن طريقِ الهاتفِ الذكي ثمّ أشعلتُ سيجارة.

كانت صورتها ما تزالُ مكانها وبجانبِ اسمها إشارةٌ خضراءُ يحبها جميعُ مستخدمي الفيسبوك حينَ تكونُ مصاحبةً لاسمِ شخصٍ عزيزٍ عليهم.

رحتُ أعبُّ التبغَ منفعلاً ومرتبكاً فالصورةُ على الرغمِ من جمالها وخصوصيتها لم تكن تلبي شغفي تجاه المرأةِ والقصةِ فهل أكونُ أكثر جرأة وأطلبُ المزيد أم أقف عند هذا الحد.

بغريزتها الأنثويةِ لاحظت ارتباكي وتردّدي فكتبت:

.(ما حبيتها؟).

سحبتُ من علبةِ التبغِ سيجارةً جديدةً وأشعلتها بانفعالٍ ثم قلت:

. لا أريدُ أن أكونَ سخيفاً في المبالغةِ لكنّ هذا الصباحَ واحدٌ من أجملِ الصباحاتِ التي حظيتُ بها منذ تسعةِ أعوامٍ لكن ينقصهُ شيء واحدٌ ليكونَ من أجملها في حياتي.

. المرأةُ الجميلة كنزٌ أما المرأةُ الجميلة والذكية.. مُعجزة.

نور كانت مُعجزتي في ذلك الصباح.

غابت عن المراسلةِ لخمسِ دقائق ثم وصلت صورتها بنفسِ قميصِ الحريرِ الزهري مع نهدٍ واحدٍ خارجه.

متى تصبحُ الصورة لوحةً ومتى تصبحُ المرأة حكاية؟

صدقاً لا أعرفُ لكن ما أعرفهُ حقّ المعرفةِ أن ذلك لا يحدثُ في حياةِ الرجلِ كثيراً.

ضاعت الكلماتُ وباتَ وصف ما أرى صعباً فاكتفيتُ بالصمتِ والتبغ.

نور حسبت صمتي عنجهيَّة أو غباءً أو لا مبالاة فقرَّرت مُقاطعتي نهائياً..

هي لا تعرفُ كم كانت صورتها جميلة فوقَ ما تخيلت وكلُّ ما هنالكَ أن الأمرَ استغرقَ عامين كي أصفَها.

عالمٌ حقير

أحتاجُ سيجارةً الآن ولا يهمُّ نوعها فسبحانَ من خلقَ ساقيكِ بهذا الكمِّ منَ الجَمَال.

مَطَر.

مُوقفُ سرافيسِ بسنادا مُزدحمٌ وفي شارعِ القوتلي دارى البَاعةُ الملابسَ الجديدة كي لا يصيبها البلل.

مِنَ المخبزِ القريبِ وعربةِ الفولِ المُتاخمةِ لزاويةِ الشارعِ ينبعثُ دخانٌ حار.

لو تعلمينَ كم كانَ المشي في اللاذقيةِ تحتَ المطرِ شهيًّاً مثلك.

يا لهُ من عَالمٍ حَقير.

أحتاجُ أن أكونَ بخيرٍ لكن لستُ كذلك ولا البلاد .

مَطَر.

أعبرُ شارعَ هنانو خفيفاً كقُبلةٍ عابرة.

ألتهمُ سيجارتينِ بنهمٍ ريثمَا أصلُ سينما الكندي وأقفُ أمامَ شباكِ التذاكر.

.هل بدأ العرض؟

.منذُ سبعِ دقائق .

.بطاقة لو سمحت .

الصالةُ الأرضية تتسعُ لمئاتِ الأشخاصِ وكانت عن بكرةِ أبيها، فارغة.

لا أحد مهتمٌ بفيلمٍ عن صعودِ المطر.

إن يكن، أشاهدهُ وحدي.

وضعتُ كوبَ القهوةِ على ذراعِ الكرسي المجاورِ ثمّ أخرجتُ علبة التبغِ وسحبتُ سيجارة كنتُ بحاجتها بقدرِ حاجتي الآن ولا يهمُّ نوعها فسبحانَ من خلقَ نهديكِ على ذا القَدْرِ منَ العُنفُوان.

شاشةٌ فضية، مقاعدُ خاوية، تبغ، قليلٌ من الدفءِ وفي الخارجِ عادَ المطرُ ليسقطَ بغزارة.

.أحياناً.. تُصنَعُ المُعجزاتُ من أبسطِ الأشياء.

خفَّ الازدحامُ في موقفِ بسنادا.

.كانت البلادُ في تلكَ الأيّامِ تُطعِمُ أبناءَها.. لا تأكلهم.

طريقُ العودةِ مصحوبٌ بالغيمِ الأزرقِ الداكنِ وعبرَ أثير الإذاعةِ تقولُ نجاة:

.في السَّفر.. بشوفك في السَّما مرسوم ع السَّحَاب على صفحة كتاب

أخرجتُ من جيبِ المعطفِ علبة التبغِ وسحبتُ سيجارتين أشعلتُ واحدةً للسائقِ أما الثانية فرحتُ أدخِّنها بشبقٍ لأنني كنتُ محتاجاً لها بقدرِ حاجتي الآن فسبحانَ من خلقَ سُرَّتكِ بهذا العصفِ من الاشتهاء .

كانَ الطريقُ إلى بيتنا مُشواراً بحدِّ ذاتهِ لكن يومها لم أكن أعرفكِ وإلا لدعوتكِ وأجلستكِ في غرفتي ثمَّ أدخلتكِ إلى لوحةِ دوريان غراي.

أراهنُ أن ألذَّ جزءٍ منكِ هو الفخذُ فسبحانَ من وهبهُ القدرة مع التبغِ على الاحتواء .

الأيَّامُ تمضي ونحنُ مثل بلادنا في مهبِّ الريحِ

أمَّا العالمُ.. العالمُ الجديد.. يالهُ من حقير.

بلغني أيها الملكُ السعيد

لساعاتٍ وأيّام، أبحرتُ في كتابِ ألف ليلةٍ وليلة.

كلّ مساء، خلالَ قراءتي تلك الصفحاتِ الأسطورية، كنتُ أحلمُ ب(شهرزاد) وهي تخرجُ نصف عاريةٍ من بين الكلماتِ كي تقصَّ الحكايا على مسمعي.

وكنتُ . يا رعاكَ الله . حريصاً عبرَ الرحلةِ بين الجبالِ والشواطئ والأدغال الغامضة أن أستمعَ للموسيقى الخالدة التي كتبها الروسي (ريميسكي كورساكوف) وسمَّاها.. شهرزاد.

.هل تتخيلونَ معي أيها الأصدقاء..

امرأةٌ جميلةٌ، تقصُّ الحكايات...

إنَّه أمرٌ يشبهُ العثورَ على الكنزِ أو الفردوس المفقود.

.بَلغِنِي، أيُّهَا المَلكُ السَّعيد، ذو الرأي الرشيد...

هل تتخيلون..

ملكٌ، وسعيد، وذو رأي رشيد.. من؟

أنا؟

يا إلهي، هل ستحدثُ المعجزةُ وأنا مُجرَّدُ تائهٍ آخر رأي رشيدٍ اتخذتهُ كانَ في سالفِ العصرِ والأوان..

يومها، بالكادِ كانَ شاربي قد ظهرَ وآخرُ اكتشافٍ لي عن المرأةِ أنَّها تتبوَّلُ وتقومُ بباقي العملياتِ العضويةِ مثل الكائناتِ الأخرى لأنني قبلَ ذلك كنتُ أعتقدُ أنَّها مُنزَّهة عن التبوّلِ وأقربُ في تكوينِها إلى الملائكة.

لم أكن طفلاً لكن، لم أكن دخلتُ في مرحلةِ الشباب. لعلَّ التعبيرَ الأنسبَ هو اليفاعة.

كنتُ يافعاً ألعبُ كرةَ القدمِ في الشارع.

أضربُ أصدقائي أو يضربونني لأجلِ حفنةٍ من صورِ الرسومِ المتحركةِ التي ألصقهَا فوقَ دفاتري.

ذاتَ يوم، وكنتُ عائداً مع غروبِ الشمسِ إلى بيتنا بعدَ ساعاتٍ من اللعبِ سمعتُ من بستانِ أحدِ البيوتِ المنزويةِ يسارَ الطريقِ التّرابي على تخومِ القرية.. صوتَ امرأة.

كانتِ الكهرباءُ مقطوعةً وفي ذلك البستانِ العديدُ من أشجارِ الإيكدينا والليمونِ والزيتونِ والتين، أمَّا المرأةُ فكانت تبدو بين تلكَ الأغصانِ المتشابكةِ مثل شبح.

تسمَّرتُ مكانِي كي أتأكَّدَ منَ النداءِ لكنَّ طيف المرأةِ اكتفى بالإشارةِ التي تدعوني إلى دخولِ البستانِ وأقسمُ إنَّ الخوفَ كادَ يدفعني للهربِ ثم سمعتُ همساً:

.تعالَ، لا تخف، تعال.

مَنحنِي اللهُ جرأةً أحنُّ إلى الإحساسِ بها فتقدَّمتُ صوبَ المصيرِ المجهول.

.ماذا لو كانَ ذلك الشيءُ شبحاً أو جنيَّاً بالفعل؟

ما الذي سيحدث؟

.من حسنِ حظِّي أنَّ عقلي في تلك الفترةِ لم يكن مليئاً بِالتُّرَّهَات.

عندما أصبحتُ قُبَالَتَهَا تحتَ شجرةِ التينِ الكبيرةِ استنشقتُ رائحة عطرها.

اسمعوني جيداً، ببساطةٍ استطيعُ الولوجَ إلى محركِ البحثِ غوغل كي أنتقي اسمَ أحدِ العطورِ النسائيةِ ومن ثمَّ أضعهُ كتتمةٍ للعبارةِ السابقةِ فأبدو أمامكم ذلكَ الكاتبَ المخملي الذي يعرفُ أنواعَ العطورِ وما إلى هنالك.

أنا لن أفعل لأنني لستُ مخمليَّاً ولا أعرفُ شيئاً عن أنواعِ العطورِ. أحبُّ رائحتها فقط، أحِبُّ جوهرَ الأشياء الجميلة.

اللعنة عليكم، لماذا أشرحُ لكم أموراً كهذه؟

المهم، كنتُ أقول:

.عندما أصبحتُ قُبَالَتَهَا استنشقتُ رائحة عطرها فارتَعَشت.

أمسكتنِي السيدةُ بيدي وقالت:

.لنجلس هنا قليلاً.

كانت شجرة التين تبدو كحبةِ فطرٍ عملاقةٍ وتحتها كانَ الترابُ طريَّاً ودافئاً فجلسنا ومن ثمَّ أخرَجَت من عبِّ صدرها علبةَ التبغِ وعلبة ثقاب.

لم أكن أعرف شيئاً عن التدخين.

أشعلتِ الفتاة سيجارةً سحبت منها نفساً عميقاً ثم مرَّرتهَا إلي.

كانت ترتدي شيئاً يشبهُ قميصَ النومِ الطويلِ أخرجت من بين أزرارهِ العلويةِ ثديها الأيمنَ ومن ثمَّ أمسكت يدي اليسرى ووضعتها فوقه.

كانَ تكوّرُ نهدها شهيَّاً أمَّا حلمتها فنفرت قليلاً عندما مَسَّتها أصابعي.

فيما بعد قرأتُ كثيراً عن نفخِ الروحِ في الأشياءِ الجامدة، كان جسدي شيئاً جامداً نهدُها نفخَ الروحَ فيه.

طلبت أن أعيدَ إليها السيجارة وعبَّت نَفَسَاً منها ثمَّ أطبقت بشفتيها على فمِي وبعدَ أن روت غليلها وضعت رأسي بين نهديها وراحت تفركهما.

إثرَ دقيقتين أو أكثر أخرجت بيدها قضيبي البريء بعد أن فكَّت عروةَ البنطالِ ووضعتهُ في فمهَا كي تعلنَ رسمياً دخولي عالم الراشدين ولم أكن تجاوزتُ بعد الحادية عشر من العمر.

حدثَ ذلك كلّه في أقلِّ من نصفِ ساعةٍ كانت أشبه بأوَّل نصفِ ساعة تلت الانفجارَ العظيم.

خرجتُ من منزلنا طفلاً في ذلك اليومِ وعدت رجُلاً إليه عندَ المساء.

كانَ الدخولُ إلى ذلكَ البستانِ والاستجابة لنداء امرأةٍ بين الأشجار آخر رأي رشيد اتخذتهُ ولا أخفي عليكم..

كان يمكنُ لشهرزاد يومها أن تقولَ لي بصدق:

.بَلغَنِي أيُّهَا الملكُ السعيد...

حازم ضاحي شحادة

أديبٌ سوري من مواليد 1982.

حاصلٌ على إجازة في الإعلامِ من جامعة دمشق.

يكتبُ في الصحافةِ العربية منذ عقدين.

تأتي مجموعتهُ القصصية (فوقَ أرضِ الذاكرة) بعد أن صدرت له الكتبُ التالية:

.أيّامٌ في البدروسية

.اختلافٌ عميق في وجهاتِ النظر

.المبغى

.أوراق نساء

نُشِرت العديدُ من قصصهِ وقصائدهِ في صُحفٍ ومجلات سوريّة وعربية.